جامعة عبد الرحمان ميرة –بجاية-

كلية الأدب والعلوم الإنسانية

نقض الرؤية الكولونيالية والبحث عن الذات في رواية –معارضة الغريب- لكمال داود

-مقاربة على ضوء الدراسات مابعد

مذكرة لنيل شهادة الماستر في اللغة والأدب العربي

تخصص ادب جزائري

إعداد الطالبة:

عبكة إيمان

إشراف الأستاذ:

لونيس بن علي

السنة الجامعية:2017/2016

المقدمة

إن الساحة الثقافية ثرية بمناهج قراءة الفن والأدب بصفة خاصة ،حيث ظهرت مناهج نقدية عديدة أحدثت نقلة نوعية في كيفية قراءتنا له،ومنذ بروز الدراسات ما بعد الكولونيالية التي اهتمت بآداب المستعمرات القديمة بتحليلها وكيفية قراءتها ،فتحت الباب لطرق مختلفة لقراءة هذه الآداب والاهتمام بمضمونها وربطها بسياقها التاريخي.

إن الخوض في غمار تفكيك بنية الإستعمار ومقولاته، كان لابد من القضاء على مقولة الإختلاف بين الأنا والأخر، وإستمراريته على المدى البعيد كما فرضتها الممارسات الخطابية الغربية والتى نتجت عن إختلال علاقة القوة والسلطة والمعرفة،كانت مهمة أدب مابعد الكولونيالية بنمادجه المبدعة تعرية هذا المنطق الذي خضت له هذه الخطابات ،وأصبح الأدب وسيلة للإنزياح عن التفكير الإديولوجي الموجه من طرف الإستعمار. وما ميز الخطاب الغربي الذي أوجدته المرحلة الكولونيالية أنه كتلة من الأفكار واللغة والأسلوب ، مما جعل كتاب ما بعد الكولونيالية يلتفتون إليه وخصوصا الرواية بإعتبارها شكلا أدبيا راقيا بإمتياز ،ويستثمرونها لإنشاء سرد مختلف يسمع من خلاله صوت من لا صوت له في الرواية الغربية ، وتفكيك نمطية العلاقات التقليدية فتكتسب قدرتها على الحضور والتأثير.

سلكت الرواية الجزائرية المعاصرة مساراً مختلفا تبعا لوعي كتابها،ومرجعياتهم المتنوعة حيث عايشت المرحلة التاريخية، وصورت الصراعات السياسية .ووقفت على تمظهرات اليومي المتردي وعرت الانتهازيين سلطت الضوء على المهمشين، ومن زاوية أخرى ثمة نموذج أخر من الروايات من جنح أصحابها بعيداً عن هذه الأطروحات جميعها ،حيث استلهموا التراث الغربي واشتغلوا على متعة الحكي. واستقصوا عوالم السرد وصفا و تركيبا ودلالة.

ومن بين هذه الأعمال التي استندت الى التراث الغربي رواية "معارضة الغريب" لكمال داود التي تتخذ توأمة مساقها الفني مع رواية "الغريب" لأمبير كامو، الذي قام بارتكاب أشهر جريمة قتل في التاريخ الأدبي ليعد كمال داود إحيائها بعد سبعين عاما من التغيب لصوت وشخصية المقتول، ومساءلة "اللاوعي الكولونيالي" الذي يختزنه ألبير كامو حيث يتجلى الاستعلاء الامبريالي ،هذا ما يطرح الأشكال حول "معارضة الغريب" : ما هي الرؤية ما بعد الكولونيالية في رواية كمال داود ؟ و أين تتجلى ؟ وهل رواية معارضة الغريب هي رواية مضادة لرواية الغريب؟ وإذا كانت الرواية هي سرد مضاد كيف يمكن لنا قراءتها؟ وما هي رؤية الأخر وتمثيل السردي لصوت المغيب في

الرواية؟ وكيف تم تمثيل الصوت الغيب للعربي المهمش في رواية ألبير كامو ؟. وكيف استعاذة الذات و الهوية عند كمال داود؟ وهل هذه الرواية هي انتقام للعربي المهمش أم بحث عن الانتماء؟

وللإجابة على هذه الأسئلة ، تم الاعتماد على الدراسات ما بعد الكولونيالية في تناول الرواية إضافة الى المنهج الاستقرائي التحليلي للقضايا التي طرحتها و معالجتها. وتصميم هيكل البحث كالتالي : مقدمة، مدخل , فصلين ، خاتمة .

فأما المدخل فقد تناولنا الدراسات الثقافية بشكل مبسط وما يتعلق باهتماماتها تمهيدا لظهور الدراسات ما بعد الكولونيالية.

والفصل الثاني" من النقد الثقافي إلى الدراسات ما بعد الكولونيالية"،وقد حاولت الإحاطة بكل بما يتعلق بالدراسات الكولونيالية من مصطلحات،واهتماماتها، وإستراتجية القراءة التي تستخدمها في قراءة الآداب،والتي يمكن أن تخدم البحث وتجيب على تساؤلاته في الفصل التطبيقي.

أما الفصل الثالث" ما بعد الكولونيالية بوصفها استرتيجية قراءة إذ تم التطرق إلى أهم ما تقوم عليه نظرية المابعد كولونيالية كإستراتيجية قراءة في مجال الحقل الثقافي والنقد الأدبي علي جملة من المرتكزات الفكرية والمنهجية كتفكيك الخطاب الاستعماري،الهوية، البحث في طبيعة العلاقة بين الأنا والأخر،اشكالية الهيمنة.

أما الفصل الثالث هو فصل تطبيقي "تجليات الرؤية مابعد الكولونيالية في رواية "مورسو،تحقيق مضاد"،حاولت إسقاط بعض مظاهر الكولونيالية على الرواية،والبحث عن الهوية والذات من خلالها،والإلمام بآليات وكيفية قراءة رواية مابعد كولونيالية بالموازاة مع رواية كولونيالية أخرى تنتمي إلى نفس السياق ، وكيفية استعادة صوت همش في رواية أخرى .وختمت البحث بتلخيص لكل ما تم دراسته في الفصلين الأول والثاني والفصل التطبيقي.

أما عن أهم المصادر التي أعتمدت عليها بالدرجة الأولى هي : عبد الله الغدامي في النقد الثقافي،بيل اشكروفت،الدراسات مابعد الكولونيالية المفاهيم الرئيسية، أنيا لومبا في نظرية الاستعمار وما بعد الاستعمار الأدبية،إذ تعتبر مصادر الأولى للدراسات مابعد الكولونيالية،والتي ساهمت بشكل كبير في خدمة الموضوع وتوضيح رؤية البحث.

لم تعترض البحث أي مشكلة أو صعوبة ،فالأساتذ المشرف " **لونيس بن علي** " جاهدا توفير ما أحتاجه من مراجع مناسبة تخدم البحث بشكل كبير،بالإضافة إل سعيه الحثيث إلى تيسير فهم المدونة قدر الإمكان وضبط توجه البحث بتوجيهاته وإرشاداته السديدة.

المدخل

الدراسات الثقافية

1- مفهوم الثقافة définition de la culture:

تحمل كلمة الثقافة معاني متعددة فهي في أذهان الناس مرتبطة بالرسم و الفن الراقي و الموسيقى الكلاسيكية و الأدب والمسرح و السينما وطرق البناء والمعمار والصناعات والخزف ومختلف السلوكيات المهذبة، وأنماط المعيشة الفاخرة والقصص والأساطير. ويختلف المفهوم الاصطلاحي للثقافة من باحث إلى أخر، ذلك راجع إلى اختلاف نظرة كل واحد لها، تبعا لمجال أشغاله وتخصصه الفكري، ولشمولها على جوانب كثيرة من حياة الإنسان. لذلك من الصعب جداً الحصول على تعريف دقيق وشامل لكلمة الثقافة " **إن الثقافة كانت قد أصبحت في عام 1700 م لفظا قديما في التعبير الفرنسي ظهرت في أواخر القرن الثالث عشر منحدرة من « Cultura » التي تعني العناية الموكولة للحقل وللماشية، ذلك للإشارة إلى قسمة الأرض المحروثة**"[1].فأصل كلمة ثقافة يعود إلى اللاتينية كما أنها تحمل بالإضافة إلى معنى الأرض المحروثة معنى التربية ثم اكتسبت معنى فكريا بانتقالها إلى اللغة الألمانية في النصف الثاني من القرن العشرين فأصبحت تدل على التقدم الفكري الذي يحصل عليه الشخص.

يعتبر علم الأنثربولوجيا الاجتماعية والثقافية هو المجال المعرفي الأول والأساس الذي نشأت فيه دلالات المفاهيم المعاصرة في أوروبا خلال النصف الثاني من القرن العشرين.و"**إدوارد تايلور Edward Taylor**" أول من وضع تعريفاً للثقافة في كتابه " **الثقافة البدائية**" سنة 1871م يقول تايلور:"**الثقافة هي ذلك الكل المركب الذي يشمل المعرفة و المعتقدات و الفن و الأخلاق والقانون والأعراف والقدرات والعادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان باعتباره عضوا في المجتمع** "[2] .معنى أنها حصيلة ما يكتسبه الإنسان خلال ممارساته اليومية للحياة الاجتماعية في تفكير عقلي مرتبط بسلوك واعي، هذا ما يؤكده "**روبرت برست Robert Brest**" حين قدم أبسط تعريف للثقافة و أكثرها وضوحاً يقوله: "**إن الثقافة هي ذلك الكل المركب الذي يتألف من كل ما نفكر به أو نقوم بعمله كأعضاء فاعلين في المجتمع**"[3]. فالثقافة تكوين فكري مع ممارسة إجتماعية .

1- دينس كوش ، مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية، تر منير السعيداني، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان، ط1، 2007، ص 17.

2- المرجع نفسه، ص 31.

3 - مجموعة من المؤلفين، نظرية الثقافة تر: سيد علي الصاوي، دار المعرفة، العدد 233، 1978، ص 09.

أما " **الماركسية marxisme** " فترى بأنها: "**كل القيم المادية و الروحية ووسائل خلقها و استخدامها التي يخلقها المجتمع من خلال سير التاريخ**" [1]. فالثقافة تتركب من شقين مادي ملموس وأخر مثالي، تتشكل عبر التاريخ وترتبط ارتباط وثيقا بالمجتمع الذي أنتجها،فهي من خلق الإنسان مقصودة في ذاتها كونها تحدد سلوكه وأفعاله،ولم تأت بطريقة اعتباطية عشوائية فهي تجسيد للرموز والأفكار.

"**هي شيء إنساني خاص ينفرد به الجنس البشري دون الأجناس الأخرى هي تشمل السلوك والأشياء المادية التي تصاحب السلوك و التراث يشمل اللغة والأفكار والمعتقدات والعادات والرموز والمؤسسات الاجتماعية والأدوات المادية والتقنيات والأعمال الفنية والطقوس والاحتفالات بالإضافة إلى أشياء أخرى**"[2]. ظاهرة إنسانية تميز الإنسان عن باقي المخلوقات، وتحقق بذلك ذاتيته من خلالها. كما تجسد هويته فعليا فكل ما ينجز من أشياء مادية ملموسة،أو طقوس روحية وفكرية،هي مجرد سلوكيات وأحداث أنجزت في سياقها،ولكن بمجرد ارتباطها بالإنسان باعتبارها صادرة عن ذات فاعلة أو أفراد فاعلين يتشكل ما يسمى بالثقافة.وهذا يظهر جليا من خلال القول التالي: " **الثقافة هي تجريد مأخوذ من السلوك الملموس و لكنها ليس سلوكا بذاتها** "[3].

أما "**آرثر إيزايرجر Arthur Aasbergr**" يعرفها بقوله:"**إنها رسم جماعي لجميع النماذج السلوكية المكتسبة اجتماعياً و التي يتم نقلها عن طريق الرموز نظراً لان الاسم يطلق على جميع الإنجازات المميزة الجماعات البشرية بما في ذلك (ليس فقط أشياء) مثل اللغة و صناعة الأدوات و الصناعة و الفن و العلوم و القانون و الحكومة والأخلاقيات والقيم الروحية والديانة، بل هي أيضا الأدوات المادية والصناعات اليدوية التي يتم فيها تجسيد الإنجازات الثقافية**"[4]. إذ يمكن القول أن الثقافة هي تجريد منبثق من سلوك مضبوط سواء كان السلوك ذاتياً أو جماعياً، يكوِّن مخزوناً معرفياً وطريقة التفكير،أو الإعتقاد أو الممارسات بهدف إلى التأقلم مع البيئة

1- عبد الغني عماد، سيسيولوجيا الثقافة المفاهيم و الإشكالات من الحداثة إلى العولمة ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت، لبنان، ط1، فيفري 2006، ص 31.

2- كيلفورد غيرتر، تأويل الثقافات، تر: محمد بدوي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان، ط1، 2009، ص08.

3- المرجع نفسه ، ص 09.

4- ارثر إيزايرجر، النقد الثقافي تمهيد مبدئي للمفاهيم الرئيسة، تر وفاء إبراهيم ورمضان بسطاوسي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، مصر، ط1، 2003، ص، 192.

الخارجية، والأشخاص يمكن اكتسابها ،ونقلها من شخص إلى أخر لتحقيق استمراريتها عبر التاريخ ،فنحافظ على السابق ونضيف الحديد بعملية إبداعية متجددة. وهذا ما يؤكده **قول** "**آرثر**" الآتي:**إن الثقافة تضم سلوكاً محكوماً بالقواعد و يقوم على الرمز و يتم تعلمه و كذلك معتقدات يتم نقلها عبر الحضارات**"[1].

إذا ما عدنا إلى التراث العربي لن نعثر علي مفهوم محدد للثقافة، ويرجع ذلك إلى كون هذه الكلمة لم تكن شائعة الاستعمال في ذلك الوقت، كما أن علماء اللغة لما يتناولوها بالدراسة والتحليل. فكل التعريفات التي نعثر عليها هي تعريفات حديثة للثقافة بمعناه الاصطلاحي، ومن بين هذه التعارف نجد تعريف "**مالك بن نبي**" :"**الثقافة لا تضم في مفهوم الأفكار وحسب، وإنما تضم أشياء أعم كثيراً، تخص أسلوب حياة في مجتمع معين من ناحية،كما تخص السلوك الاجتماعي الذي يطبع تصرفات الفرد في ذلك المجتمع من ناحية أخرى**"[2].فهي وليدة المجتمع و تطبع تصرفات الإنسان داخل محيطه الاجتماعي و يضيف قائلاً:"**الثقافة مجموعة من الصفات الخلقية، والقيم الاجتماعية ،التي تؤثر في الفرد منذ ولادته وتصبح لا شعوريا العلاقة التي تربط سلوكه بأسلوب الحياة في الوسط الذي ولد فيه**"[3].

خلاصة القول أن الثقافة هي كل ما يكتسبه الإنسان من صنوف المعرفة النظرية، والخبرة العلمية، وبالتالي فهي تحدد بطريقة تفكيره ومواقفه من الحياة، والمجتمع بغض النظر عن الجهة التي حصل عليها على هذه المعرفة أو الخبرة، سواءً من البيئة أو المحيط أو القراءة أو التعلم. بذلك تتركب من عناصر بعضها فكري ،وبعضها سلوكي ، وبعضها مادي ،وبعضها روحي.

2 – الدراسة الثقافية les études culturelle:

تعتبر الدراسات الثقافية حقلا من حقول الدراسات الأكاديمية التي كانت وليدة النظرية النقدية، ومصطلح الدراسات الثقافية ليس جديد في هذا النوع من الحقول المعرفية.إذ يقول "**آرثر أيزابرجر Arthur Aasbergr**" عن هذا المصطلح "**إن مصطلح الدراسات الثقافية ليس مصطلحا جديداً، حيث شرع مركز الدراسات الثقافية المعاصرة بجامعة برمنجهام عام 1971 في نشر صحيفة أوراق عمل في الدراسات الثقافة**"[4].هذا ما ذهب إليه "**صلاح قنصوة**" حين أعتبر جامعة برمنجهام

1– ارثر إيزايرجر، النقد الثقافي تمهيد مبدئي للمفاهيم الرئيسة،المرجع السابق ،ص 192.

2– مالك بن نبي، مشكلة الحضارة، مشكلة الثقافة، تر : عبد الصابور شاهين ، دار الفكر ط4، 2000، ص13.

3– المرجع نفسه، ص 74.

4– آرثر أيزابرجر، النقد الثقافي تمهيد مبدئي للمفاهيم الرئيسة ، مرجع سابق ،ص 31.

هي السباقة إلى استخدام هذا المصطلح في قوله: " **لقد أنشأ مصطلح الدراسات الثقافية عام 1971 عندما بدأ مركز الدراسات الثقافية المعاصرة بجامعة برمنجهام في نشر صحيفة أوراق عمل في الدراسات الثقافية و لكنها لم تستمر طويلاً**"[1].

وقد ظهرت الدراسات الثقافية لتصنف الثقافة التي تنتجها مختلف المجموعات البشرية، وبخاصة تلك التي تم تهميشها والسيطرة عليها،"**وقد ركزت على الخطابات التي تنتجها المجموعات البشرية المختلفة، والمتنوعة على مستوى الثقافة بين تلك الثقافات، وعلى أنواع من الثقافات الخاصة والعامة والهامشية**"[2]. أنها لا تبق ثقافة معينة تختص بدراستها فهي تدرس الثقافة بغض النظر عن تصنيفها سواء كانت ثقافة راقية موجهة الطبقة النخبوية، أم ثقافة شعبية لعامة الناس ، حملت في طياتها مقاييس جمالية أم غير جمالية.

وهذا ما ذهب إليه "**إدريس خضراوي**" حين أعتبر أن اهتمام الدراسات الثقافية يشمل جميع الجوانب المرتبطة بالحياة اليومية للإنسان، وذلك يظهر من خلال قوله:"**يتمثل الموضوع الأساس للدراسات الثقافية في دراسة كل أنماط الإنتاج الثقافي في علاقتها بالممارسات التي تحدد اليومي، إيديولوجيا، مؤسسات ،لغات، بني، سلطة.....الخ**"[3].

كما تهتم الدراسات الثقافية بالنص، وتحاول تجاوز النظرة التقليدية المتعلقة بما ينطوي عليه النص بوصفه قيمة جمالية ، إلى الانفتاح بوصفه ظاهرة ثقافية يحوي مجال عريض من الاهتمامات، وأنساق مضمرة غير واعية.

أما "**عبد الله الغدامي**" يرى أن النص حسب الدراسات الثقافية " "**ليس سوى مادة خام يستخدم لاستكشاف أنماط معينة مثل الأنظمة السردية، و الإشكاليات الاديولوجيات و أنساق التمثيل، وكل ما يمكن تجريده من النص.لكن النص ليس هو الغاية القصوى، وإنما غايتها المبدئية هي الأنظمة الذاتية في فعلها الاجتماعي في أي تموضع كان،بما في ذلك تموضعها النصوصي**"[4]. فالنص يخفي أنماطاً مضمرة تخبئ تحت عباءة الجمالي تسعى الدراسات الثقافية

1- صلاح قنصوة ، تمارين النقد الثقافي، دار ميريت، القاهرة، ط 1، 2007، ص 06.

2- أحمد أبو حسن الدراسات الثقافية و النقد المغربي المعاصر، مجلة رباط الكتب،23 مارس 2013 .
http://ribatalkoutoub.com

3- إدريس خضراوي، السرد موضوعا الدراسات الثقافية، تنبين للدراسات الفكرية و الثقافية، المركز العربي للأبحاث و دراسة السياسات، العدد 7، م 2، 2014، ص 112.

4- عبد الله الغدامي ، النقد الثقافي قراءة في الأنساق العربية، الهيئة العامة لقصر الثقافة،القاهرة، ط1، 2010 ، ص21.

إلى كشفها، ولكنها لا تقصد النص بذاته كخطاب يخضع للتطبيق المؤسساتي أم لا ، وهذا ما يؤكده" **إسماعيل خلباص حمادي**" في قوله: "**إن الدراسات الثقافية تأخذ النص من حيث ما ينكشف من خلاله من أنظمة ثقافية تتشكل داخل منظومة مؤسساتية. بما أنها لا تركز على ما يخص البنية اللغوية والأسلوبية للنص، بل صارت تستخدم النص لاستكشاف أنماط معينة كأنماط التمثيل و التصور...الخ**"[1].

كما ركزت الدراسات الثقافية على تسليط الضوء على الهيمنة بأساليبها المختلفة ،وكيفية استقبال وتفسير النصوص الثقافية من طرف المتلقي، باعتبار هذه الثقافة موجهة للاستهلاك هي هيمنة بذاتها تسعى إلى مقاومتها،" **فقامت الدراسات الثقافية لمواجهة مفهوم الهيمنة، وإبراز مختلف أشكال الهيمنة التي تمارسها السياسات المتحكمة ،وبالخصوص بعد التحولات السياسية التي عرفتها مرحلة الثمانينات**"[2].ويؤيده "**عبد الله الغدامي**" بقوله:"**إنها تقرر أسئلة الدلالة والإمتاع والتأثيرات الايدولوجية، وهذا يستحضر نظرية الهيمنة التي طرحها غرا مشي (...) وبما أن قرامشي كشف علامات التسلط من حيث علاقتها بالطبقة فإن الدراسات الثقافية توسع المجال ليشمل العرق والجنس والجنوسة**"[3].

فالدراسات الثقافية لا تكتفي بدراسة القوة المسيطرة فحسب بل تنتقل أيضا إلى العلوم الإنسانية كالتاريخ، وعلم الاجتماع،وعلم النفس والفلسفة،يؤكده" **سامیون دیورینغ Simon Dioring** " ." **تنظر الدراسات الثقافية إلى أنواع مختلفة من النصوص ضمن إطار الممارسة الثقافية أي العمل و الإنتاج و تجليات الحياة اليومية للكائن البشرى التي تتأثر بأبعاد اقتصادية و بالطبقة والعرق والجنوسة والسياسة والحاجة و الرغبة**"[4]. فالنص الأدبي هو وسيلة وأداة لكشف الأنظمة الثقافية التي يحتوي عليها من قضايا تتصل بالذات والهوية، والانتماء،اللغة والتواصل،الوطن،الاغتراب،أساليب الهيمنة،والمؤثرات الإديولوجية،الإمتاع والدلالة....الخ.

1- إسماعيل خلباص حمادي، النقد الثقافي مفهومه منهجه و إجراءاته ، مجلة كلية التربية، العدد 13، 2013، ص 11.

2- أحمد أبو حسن ، الدراسات الثقافية و النقد المغربي، مرجع سابق.

3- عبد الله الغدامي، النقد الثقافي ، مرجع سابق، ص 21-22.

4- سايمون ديورنغ ، الدراسات الثقافية، مقدمة نقدية، تر: ممدوح يوسف عمران، عالم المعرفة، الكويت، 2015، ص10.

3- النقد الثقافي critique de la culture:

يعد النقد الثقافي من أهم الظواهر النقدية التي رافقت ما بعد الحداثة في مجال النقد والأدب، يعرفه "**عبد الله الغدامي**" بقوله:"**النقد الثقافي فرع من فروع النقد النصوصي العام، ومن ثمة فهو أحد علوم اللغة وحقول (الألسنة) معني بنقد الأنساق المضمرة التي ينطوي عليها الخطاب الثقافي بكل تجلياته و أنماطه و صيغه**"[1].فالغدامي يعتبر النقد الثقافي أحد فروع النقد المختصة بالنصوص يستقرى الثقافة، ويبحث عن الأنساق المضمرة فهي أنساق ثقافية تاريخية ....الخ تتكون عبر البيئة و تتقن الاختفاء تحت عباءة الجمالي. " **وهو لذا معني بكشف لا الجمالي، كما هو شأن النقد الأدبي ،وإنما همه كشف المخبوء من تحت أقنعة البلاغي والجمالي**"[2].

وهذا ما يؤكده (**آرثر ايزابرجر**) "**إن النقد الثقافي نشاط و ليس مجالا معرفيا خاصا بذاته**"[3]، يقوم بتوظيف المفاهيم التي تقدمها مختلف المدارس المتصلة بالعلوم الإنسانية، وتطبيقها على الثقافة فيركز على الخطاب بشكل مباشر." **فما يميز النقد الثقافي ما بعد البنيوي هو تركيزه الجوهري على أنظمة الخطاب ،وأنظمة الإفصاح النصوصي كما هي لدى بارت وديريدا وفوكو خاصة مقولة ديريدا أن لاشيء خارج النص، وهي مقولة يصفها ليتش بمثابة البرتوكول للنقد الثقافي الما بعد بنيوي**"[4].فبعد المفاهيم التي جاءت بها البنيوية ظهرت مفاهيم مغايرة أخذت شكل اتجاهات نقدية جديدة في الفكر الحداثي، فنجد على سبيل المثال لا الحصر جاك ديريدا الذي قام بالمحاولات الأولى لنقد البنيوية والعمل على تجاوزها حيث أكد أن النص المنسجم الذي يتشكل من وحدة تامة ومغلقة ،والمعنى لا وجود له إلا في النص ذاته.

أما "صلاح قنصوة" يعرف النقد الثقافي:"**هو ليس منهجا من بين منهاج أخرى أو مذهبا أو نظرية كما أنه ليس فرعاً أو مجالا متخصصا من بين فروع المعرفة ومجالاتها، بل هو ممارسة أو فاعلية تتوفر على درس كل ما تنتجه الثقافة من نصوص سواء كانت مادية أو فكرية ،ويعني النص هنا كل ممارسة قولا أو فعلا تولد معنى أو دلالة**"[5]. فالنقد الثقافي هو عملية تطبيقية تكشف الطاقات والأنظمة والدلالات التي تخزنها النصوص شفوية أو مكتوبة.

1- عبد الله الغدامي، النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية ، المركز الثقافي العربي، ط3، 2005،ص83.

2- المرجع نفسه ، ص 84.

3- آرثر أيزبرجر ، النقد الثقافي تمهيد مبدئي للمفاهيم الرئيسية ، مرجع سابق ، ص 30.

4- عبد الله الغدامي ، النقد الثقافي ، مرجع سابق ، ص 30.

5- صلاح قنصوة ، تمارين في النقد الثقافي ، مرجع سابق ، ص5.

ويضيف "**صلاح قنصوه**" عن مجال النقد الثقافي قائلاً:"**مجال النقد الثقافي إذن ما يسمى بالدراسات الثقافية، وهي مفهوم حديث نسيبا بما ينطوي عليه من دراسة الثقافات الرفيعة، والتوسعية والفرعية والاديولوجيات والأدب وعلم العلامات والحركات الاجتماعية والحياة اليومية ووسائل الإعلام والنظريات الفلسفية والاجتماعية ونحوها ،على أن يتخذ كل من ذلك أدوات للتحليل والتفسير دون هيمنة إحداها على سائرها أو استبعاد متعمد لبعضها**"[1]. إذ يتناول مختلف أشكال الثقافة وأنظمتها المضمرة الغير واعية كوسائل للتحليل، والتفسير دون إيثار أو تفضيل لأحدها على الأخرى أو إقصاء لأخرى.ويضيف قائلاً:" **لا يمارس النقد الثقافي عمله وكأنه خطاب متخصص مثل الخطاب الفلسفي أو السياسي أو الاقتصادي (...) الذي يتناول الواقع القائم بمنظور ذلك الخطاب وأدواته**"[2].فيخرج النص من حيزه الضيق بدعوى التخصيص إلى مجال أوسع يكون محملا بعدد من الرموز الثقافية،" **وبمقدور النقد الثقافي أن يشمل نظرية الأدب والجمال والنقد ،وأيضاً التفكير الفلسفي وتحليل وسائط النقد الثقافي الشعبي ،وبمقدوره أيضا أن يفسر نظريات و مجالات علم العلامات (...) الخ .ودراسة الاتصال والبحث في وسائل الإعلام والوسائل الأخرى المتنوعة التي تميز المجتمع والثقافة المعاصرة (و حتى الغير المعاصرة)** "[3].

خلاصة ما سبق أن النقد الثقافي لا يقصد به نقد الثقافة، وإنما قراءة الثقافة والبحث عن أنساقها المضمرة، ونجد هناك تداخل كبير بين الدراسات الثقافية والنقد الثقافي. فليس بالأمر اليسير التفريق بينهما، ولكنهما في العموم يدلان على الدراسات التي تشتغل بصورة مركزة على تفكيك النص الثقافي درساً و تحليلاً.

"**فالفرق بين مصطلحي الدراسات الثقافية والنقد الثقافي فالأول يعني حقول الممارسة النقدية ومناهجها، والثاني يعني الممارسة نفسها، وما الفصل بينهما إلا الغرض التنظيم المنهجي ،والتوسع بالمفاهيم أو التفريق بين الدراسات الثقافية عموما بين تلك الموضوعة بقصديه النقد الثقافي. وبصورة عامة يمكن القول أن مصطلح الدراسات الثقافية يطلق أحياناً على مجمل الدراسات الوظيفية التحليلية والنظرية والنقدية، بينما يشير مصطلح النقد الثقافي إلى هوية المنهج الذي يتعامل مع النصوص، والخطابات الأدبية والجمالية والفنية فيحاول**

1- صلاح قنصوة ، تمارين في النقد الثقافي ، مرجع سابق ، ص5.

2- المرجع نفسه ، ص5.

3- آرثر ايزبرجر ، النقد الثقافي تمهيد مبدئي للمفاهيم الرئيسية ، مرجع سابق، ص31.

استكشاف أنساقها المضمرة غير الواعية"[1].فالدراسات الثقافية تتناول موضوعات تتعلق لابالممارسات الثقافية لفهم الثقافة بأشكالها المركبة بينما النقد الثقافي منهج يبحث عن الأنساق المضمرة في النصوص.

1- إسماعيل خلباص حمادي، النقد الثقافي مفهومه منهجه و إجراءاته، مرجع سابق ،ص 11.

الفصل الأول

من النقد الثقافي إلى الدراسات ما بعد الكولونيالية

قد شهد العالم مرحلة انتقالية في جميع المجالات بعد حصول معظم مستعمرات علي استقلالها،ونظر للتأثيرات الطاغية علي هذه المستعمرات والتي جعلتها تدور في فلك هذه الدول الاستعمارية نشأ منهج دراسي جديد يهتم بتتبع هذه التأثيرات وإعادة النظر في تاريخها القديم والحديث .

1- مفهوم الكولونيالية والإمبريالية

1 – 1 مفهوم الكولونيالية colonialisme :

إن كلمة كولونيالية هي نقل حرفي **لكلمة colonialisme** باللغات الأجنبية إلى العربية، وهي مرادف لكلمة استعمار كما هو شائع .وحسب قاموس أكسفورد للغة الإنجليزية مشتقة من كلمة "**كولونيا Colonia** " التي كانت تعني مزرعة أو مستعمرة ، والمستعمرة كما جاء في نفس المعجم مجموعة من الناس يستقرون في موقع جديد ويشكلون جماعة خاضعة لدولتها الأم أو مرتبطة بها، وهكذا تتشكل الجماعة وتتألف من المستوطنين الأساسين وأحفادهم ووارثيهم طالما أن الرابطة مع الدولة الأم مستمرة[1].

أما "**بيل إشكروفت Bill Ashcroft** " يستخدم مصطلح الكولونيالية للإشارة إلى الفترة السابقة على الاستقلال **أي" الفترة الحكم الاستعماري داخل المستوطنات قبل حصول هذه الأخيرة على الاستقلال، كما يعتبره أيضا ذات أهمية في تحديد الشكل المحدد للاستقلال الثقافي الذي تنامي بالتزامن مع التوسع الأوربي خلال القرون الأربعة الفائتة"**[2]. أي فرض السيطرة بالقوة العسكرية من قبل القوى الكبرى ذات النفوذ على الشعوب الضعيفة ويضيف قائلاً عن الكولونيالية "**إقامة مستوطنات على أرض بعيدة**"[3].كما يشير إلى أن الكولونيالية فائض طبيعي للقومية ويكون اختبارها هو قدرة المستعمرين على غرس الحضارة التي يمثلونها في البيئة الاجتماعية والطبيعية التي يجدون أنفسهم فيها، فتحويل أو غرس مجموعات بشرية في البلدان المستعمرة بدوافع وطنية

1- ينظر أنيا لومبا، في نظرية الاستعمار و ما بعد الاستعمار الأدبية تر: محمد عبد الغني غنوم دار الجوار للطباعة والنشر والتوزيع، اللاذقية، سوريا، ط1، 2007، ص17.

2- بيل إشكروفت وآخرون ، دراسات ما بعد الكولونيالية المفاهيم الرئيسة ،تر:أحمد الروبي وآخرون،المركز القومي للترجمة، القاهرة ، ط 1، 2010، ص 105.

3- المرجع نفسه ، ص 205.

وقومية ونشرها يكون باستخدام العنف العسكري ، مثل ما بررت فرنسا احتلالها للجزائر على أنها امتداد جغرافي لها و تعتبرها مقاطعة فرنسية.

و إذ ما بحثنا عنها في قواميس الترجمة نجد أن **Colonialisme** هي مرادفة للاستعمار في اللغة العربية ، ونجد لهذا المصطلح تعريفات كثيرة حيث يعرفها إسماعيل عبد الفتاح في قاموس المصطلحات السياسية بقوله:"**الاستعمار أو الاستعمارية هي نزوع الدول الكبيرة لفرض سلطانها وإرادتها على البلدان الأخرى والاحتفاظ بهذه السيطرة بمختلف الوسائل السياسية،والاقتصادية والعسكرية ومحاولة تغير هوية البلدان المستعمرة، وربطها بالدول الاستعمارية ربطاً عضوياً ولغوية وثقافيا واقتصاديا واستغلال ثرواتها ، وأيضا إقامة المشروعات المتعددة فيها**"[1].

فما يحاصبه من استغلال اقتصادية وسلب أراضي البلدان المستعمرة تسعى أيضا إلى طمس هويتها والهيمنة عليها في جميع جوانب الحياة الإنسانية، وتصبح تابعة لها على المدى البعيد ليسهل التحكم وفرض مكوناتها الحضارية والثقافية والفكرية بالقوة الجبرية. فالأستاذ " **زاهر رياض** " يعرف الاستعمار بأنه "**امتداد نفوذ لدولة ما إلى دولة أخرى على أن يصحب هذا النفوذ استغلال للأرض والسكان لصالح الدولة صاحبة النفوذ**"[2]. ففرض السيطرة على دولة بصاحبها استغلال للأرض والسكان قد يكون ذلك عسكرياً وبالقوة مثل الاستعمار الفرنسي في الجزائر أو عن اتفاق مسبق حيث تخضع الدولة الضعيفة لدولة أقوى منها لفرض الحماية عليها إما بالانتداب أو الوصاية.

تعرف"**أنيا لومبا Anya Lomba** " الاستعمار بقولها :" **يمكن تعريف الاستعمار بأنه غزو أراضي و ممتلكات شعب أخر والسيطرة عليها ، بيد أن الاستعمار بهذا المعنى ليس مجرد توسع عدد من القوى الأوروبية إلى أسيا وإفريقيا والأمريكيتين منذ القرن السادس عشر وما بعده،بل لقد كان سمة واسعة الانتشار ومتكررة للتاريخ الإنساني**"[3]. فكلمة استعمار تشمل كل التوسعات الاستيطانية بدء من القرن الثاني عشر ميلادي إلى غاية الاستعمار الأوروبي بما في ذلك الحروب الصليبية والفتوحات الإسلامية هي نوع من الممارسات الاستعمارية.

بهذا يمكن القول أن هناك مركز مهيمن له سيطرة ونفوذ على الهامش (مُسْتَعْمِرْ/مُسْتَعْمَرْ) بينها علاقة استغلالية وإخضاع بالقوة، وتمتد هذه العلاقة إلى التعاملات

1 – إسماعيل عبد الفتاح الكافي ، الموسوعة الميسرة للمصطلحات السياسية ، د ط، د ت، ص ،39.

2 – زاهر رياض ،استعمار إفريقيا، الدار القومية لطباعة والنشر، القاهرة ، 1965،ص 6.

3 – أنيا لومبا ، في نظرية الاستعمار وما بعد الاستعمار الأدبية ،مرجع سابق ، ص 18.

الاجتماعية والتعليمية والاقتصادية والسياسة، حيث تقوم فكرة الاستعمار على العنصرية والدونية. فالاستعمار الأوروبي مثلا في أي منطقة كان يتشكل من المواطن المحلي ملحق بطبقة المستوطنين، وطبقة المستوطن الأوروبي، فالشعوب الخاضعة للاستعمار غالب تفرض عليها قوانين ومعاملات غير مطبقة في البلد الاستعماري كالقوانين التعليمية التجنيد الإجباري لاستغلال الأفراد لمصالح عسكرية أو اقتصادية وسلب الملكية،حيث " **تمتلك مفردة الاستعمار تاريخية متحولة فقد أصبحت ذات مدلول سياسي يشير إلى عملية ارتبطت بالتحرك الجيوسياسي لبعض القوى للسيطرة والهيمنة على مناطق أهلة، فالجغرافيا هنا مركزية في تملك هذه الكلمة لمفهومها، فالمكان هو الحيز الذي يتم تقع عليه السيطرة و التملك و المصادرة، وهي هيمنة على المكان في المقام الأول وكل ما فوق المكان ، بما يحتويه من مصادر الوجود الإنساني**"[1]. الاستعمار مؤلف من عنصر المكان بالإضافة إلى الفعل الاقتصادي هذين العنصرين يقعان تحت بند السلطة والسيطرة.

عن تداخل المصطلحين الكولونيالي والاستعماري تقول **أمال علاوشيش:**"**وعن مفهوم الكولونيالي أو الاستعماري وهو المصطلح المتداول عموما في كتب التاريخ، وذلك على اعتبار الثاني مقدمة أو مدخل الأول هذا من جهة،ومن جهة أخرى تميزه عن مصطلح ما بعد الاستقلال باعتبارها الفترة التي أعقبت التخلص من الثاني، هذه المرحلة تميزت بتبعية فكرية واقتصادية للأخر المستعمرة رغم التخلص منه عسكرياً**"[2]. أي أن الاستعمار هو تمهيد لإرساء معالم الكولونيالية ،التي هي هيمنة وسيطرة علي شعوب أخري وإخضاع كلّ ما فيها لسيطرتها لتحقيق أهداف وغايات معينة. يقوم الاستعمار في أساسه على السرقة والنهب والقتل، كما يستخدم للفصل بين مرحلة الاستعمار ومرحلة ما بعد الاستعمار.

1– 2 مفهوم الامبريالية (Impérialisme):

يعتبر مصطلح الامبريالية من أهم المصطلحات التي وافقت الحركة التوسعية الغربية وتعرف كلمة الامبريالية كما ورد في "**معجم اللغة العربية المعاصرة**"**امبريالي،استعماري، الامبريالي، استعمار احتلال أو نزعة تسلطية من بعض الدول للاستحواذ على بعض الأقاليم**

1– رامي أبو شهاب، الرسيس والمخاتلة ، خطاب ما بعد الكولونيالية في النقد العربي المعاصر، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، 2013، ص46.

2– آمال علا وشيش، ما بعد الكولونيالية، ضمن كتاب خطابات الـ"ما بعد ، مجموعة مؤلفين ، ط1 ،2013 ، ص 43.

المستقلة أو على عتبة المستقلة بالسيطرة الاقتصادية والسياسية"[1]. الدول التي تتمتع باستقلال نسبي تفرض عليها السيطرة، وتصبح تابعة لها سياسياً واقتصادياً وإداريا.

وتعتبر الامبريالية من المصطلحات السياسية الحديثة نسبيا إذ تعرف في موسوعة المصطلحات السياسة بأنها "**تعني الرأسمالية الاحتكارية لأنها المرحلة الأخير في تطور الرأسمالية لنعني التعسف في وصف السياسة الخارجية لإمبراطور فرنسا، وهذا المصطلح (الامبريالية) يقصد به السياسة العدوانية لدولة تجاه أخرى، وتتسم هذه السياسة عادة بعدم المسؤولية**"[2]. فالمصطلح متصل بالمؤسسات الاقتصادية وهي مرحلة متقدمة جداً من مراحل تطور الرأسمالية، فالامبريالية هي وليدة الرأسمالية وأعلى مراحلها كما يسميها "**فلادمير لينين Vladimir Lenin**" ، أما من الناحية السياسية هو إستراتيجية تتميز بالعنف و العدوانية و الهمجية.

قد مارس الامبريالية القوى الكبرى منذ العصور القديمة فجذور الكلمة تعود إلى اللاتينية حيث يقول عبد "**الهادي التيمومي**":" **إن كلمة – إمبريالية – المشتقة من كلمة "Empire " اللاتينية كلمة قديمة ،وتعني في الأزمنة السابقة لعصرنا إما كل سياسة توسعية ترمي إلى إنشاء إمبراطورية أو كل منظومة فكرية تبرر ذلك**"[3]. فهذا التوجه الاديولوجي وتوسيع النفوذ السياسي والعسكري مرسى منذ القديم لكنها شهدت انتشاراً واتساعا بدءا من النصف الثاني من القرن التاسع عشر، لاحتدام الصراع بين القوى الاستعمارية والدول الرأسمالية الكبرى حول إنشاء مستوطنات جديدة تخدم مصالحها، لتوسيع مناطق النقود والهيمنة والسيطرة والاستغلال الاقتصادي، وإخضاع الشعوب الضعيفة للعبودية في القارة الإفريقية والأسيوية وصولا إلى أمريكا اللاتينية بالخصوص الدول ذات مواقع إستراتيجية.

و يعرفها "**بيل إشكروفت Bill Ashcroft**" بقوله " **في معناه الأعم تشير الامبريالية، وهي في حد ذاتها قد كانت ملمحا لكل فترات التاريخ حيث بسطت إحدى الأمم سيادتها على واحدة أو العديد من الأمم المجاورة**"[4]. حسب بيل اشكروفت الامبريالية تشير إلى تأسيس إمبراطورية أي حكم مجموعة كبيرة من الدول والأقاليم والشعوب،التي وحدت تحت كيان سياسي واقتصادي واحد يسمى إمبراطورية، باستخدام السيطرة المباشرة بالقوة العسكرية أو النفوذ والتأثير.

---

3 – أحمد مختار عبد الحميد عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة ،عالم الكتب، القاهرة ، ج 1، ط1، 2008، ص 116.

1 – إسماعيل عبد الفتاح عبد الكافي ، الموسوعة المسيرة المصطلحات السياسية، مرجع سابق، ص53.

2– عبد الهادي التيمومي ، مفهوم الإمبريالية ، دار محمد علي ، تونس ، ط1، 2004، ص 71 .

3– بيل إشكروفت وآخرون ، دراسات ما بعد الكولونيالية المفاهيم الرئيسية ، مرجع سابق ، ص 205.

ويحصر ممارسة الامبريالية في حدود البلدان المجاورة ، أي أن تكون الإمبراطورية يكون ضمن المساحات الجغرافية المتصلة.

أما "**إدوارد سعيد Edward Said**" فيتناول الامبريالية في كتابه الامبريالية والثقافة على أنها " **فكرة حكم بلدان ما وراء البحار والقفز إلى أراضي نائية أبعد من الأقاليم المتاحة**"[1].أراضي بعيدة تكون غالبا ذات مساحة جغرافية متباعدة، وقد شهد التاريخ تكوين إمبراطوريات عدة مثل الإمبراطورية الرومانية، إمبراطورية المغول، العثمانية، البيزنطية، البريطانية...الخ.

فالامبريالية إذن هي سياسة واعية ومدروسة مسبقا تبعها دولة ذات نفوذ سياسي واقتصادي لإخضاع مجموعة من الدول لسيطرتها بالقوة العسكرية أو الهيمنة السياسية، والاقتصادية تلبية لرغباتها الاستعمارية وتحقيق مصالحها وتوسع مناطق نفوذها،التي ظهرت في أوروبا كحركات توسعية .لم تكتف بالسيطرة على جزء فقط، و إنما السيطرة على العالم كله.

من خلال التعريفات السابقة نلاحظ أن هناك تداخل بين مفهوم الامبريالية ومفهوم الكولونيالية (الاستعمارية)، لكن" **إدوارد سعيد**" يوضح الفرق بينها قائلاً:" **تعني الامبريالية كما تستخدم الكلمة هنا الممارسة والنظرية ووجهات النظر التي يملكها مركز حواضري مسيطر بحكم بقعة من الأرض قصية، أما الاستعمار" colonialisme " الذي هو دائماً من عقابيل الامبريالية، فهو زرع مستوطنات في بقاع من الأرض قصية،إن الإمبراطورية هي علاقة، رسمية أو غير رسمية، تتحكم فيها دولة ما بالسيادة السياسية الفعالة لمجتمع سياسي أخر، ويمكن تحقيق هذه العلاقة بالقوة ،أو التعاون السياسي،أو بالنفعية الاقتصادية أو الاجتماعية أو الثقافية، أما الإمبراطورية ببساطة هي العلمية والسياسية اللتان بهما يتم تأسيس الإمبراطورية أو إدامتها والحفاظ عليها**"[2]. بمعنى أن الاستعمار هو نتيجة للامبريالية التي تعمد في شقها العملي إلى إقامة مستوطنات على أراضي بعيدة،وإتحاد هذه المستوطنات أو المستعمرات يسمى إمبراطورية،أما في شقها النظري هي السياسية المتبعة في تأسيس هذه الإمبراطورية والحفاظ عليها .

وهو ما ذهبت إليه " **أنيا لومبا Anya Lomba** " بقولها :" **التفكير الامبريالية والامبريالية الجديدة ظاهرة نشأت في المدينة، وهي عملية تؤدي إلى الهيمنة والسيطرة، ونتيجة**

1- إدوارد سعيد الثقافة والإمبريالية ، تر:كمال أبو ديب ،دار الآداب ،للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، ط 1، 2014، ص 68.

2- االمرجع نفسه ، ص 80.

لذلك أو ما يحصل في المستعمرات نتيجة للسيطرة الامبريالية، هو الاستعمار أو الاستعمار الجديد إذا البلد الامبريالي هو "الحاضرة" التي تتدفق منها القوة، والمستعمرة والمستعمرة الجديدة هي المكان الذي تخترقه وتسيطر عليه. ويمكن للامبريالية العمل دون مستعمرات رسمية لكن الاستعمار لا يستطيع ذلك"[1]. تقوم هذه المفروقات على أساس المكان فالامبريالية نابعة من الحواضر صاحبة المركز والسلطة، بينما الاستعمار يكون في المستوطنات، ضف إلى ذلك الامبريالية ليست من الضروري أن تربطها علاقة مباشرة مع مستعمراتها كما هو الحال في الاستعمار، التي تقوم العلاقة بينها على الرسميات فقد تستخدم علاقة التعبة والهيمنة الاقتصادية، وبهذا نخلص إلى أن الامبريالية نظام يقوم على الهيمنة المطلقة أما الاستعمار هو سيطرة عسكرية متبوع باستغلال المصادر المادية.

2- الخطاب الكولونيالي:

2 – 1 مفهوم الخطاب discours :

من الطبيعي العثور على تعريفات مختلفة لمفهوم الخطاب فهذا الأخير كمصطلح واسع وفضفاض يكتسب دلالات مختلفة من باحث إلى أخر، وتبعا لاختلاف التخصصات والفروع العلمية المتصلة بالخطاب.ففي نظر علم الاجتماع متصل بنية التفاعل الاجتماعي أي الحوار اللغوي الذي نجريه أثناء التواصل، أما في علم النفس هو الكيفية التي يتم بها فهم النصوص القصيرة المكتوبة، أما في علم اللغة هو الطريقة التي يؤلف بها المتكلم رسائل لغوية يوجهها إلى المتلقي و أيا كانت تعريفات الخطاب في عموما تتفق على أنها ظاهرة اجتماعية مركبة.

وقد استخدمت كلمة خطاب في الأصل في القرن السادس عشر تقريبا لوصف أي نوع من التحدث أو الكلام أو المحادثة ،ولكن الكلمة أصبحت تستخدم بصورة متزايدة لوصف الحديث أو السرد أو التناول المطول والمفصل، أي موضوع متسم بطابع رسمي اكبر أو مبحث أو أطروحة أو عظة. و" **استخدم اللغويون الكلمة مؤخرا بمعنى تخصصي لوصف أي وحدة كلامية أطول من الجملة"**[2]. فالخطاب كل كلام منطوق أو مكتوب ذات وجهة محددة و يكون بذلك مرادف للنص.

ويعرف **بيل اشكروفت** الخطاب بـ"**أنه مركب العلامات والممارسات التي تنظم الوجود الاجتماعي والإنتاج الاجتماعي"**[3]. يسهل عملية التواصل بين المبدع والمتلقي ضمن إطار

1- أنيا لومبا، في نظرية الاستعمار وما بعد الاستعمار الأدبية ، مرجع سابق، ص22.

2- بيل اشكروفت و آخرون ، دراسات ما بعد الكولونيالية المفاهيم الرئيسية ،مرجع سابق، ص139.

3 – المرجع نفسه ،ص 103.

اجتماعي منظم بحيث يزداد مستوى الإدراك والوعي لدى الطرفين، فممارسة الخطاب تبرز ملامح الوجود والتكوين الاجتماعي الخفي لصورة أوضح .ويضيف "**منظومة من المقولات يمكن أن يدرك العالم داخل حدودها .وهو منظومة تمكن الجماعات المهيمنة في المجتمع من تشكيل مجال الحقيقة من خلال فرض معارف وحقول معرفية و قيم معينة، على الجماعات الخاضعة لسيادتها وبوصفه تكوينيا اجتماعيا، يؤدي الخطاب وظيفة تشكل الواقع ليس للأشياء التي تبدو انه يمثلها فحسب، بل أيضا للموضوعات التي تشكل المجتمع والذي يعتمد عليه الخطاب**"[1]. فالخطاب سلطة خفية بعيد تشكيل المجتمع وفق توجهاته كما هو موجود ، بحيث تصبح هذه السلطة هي المشكلة للخطاب والممارسات الخطابية تجعل من الصعب على الناس التفكير خارج الرؤية التي يشكلها الخطاب كقوة طاغية ومسيطرة .

أما الخطاب حسب " **مشال فوكو Michel Foucault** " ."**هو حقل كامل أو مجال تستعمل في داخله اللغة بطرق محددة ، تمتد جذور هذا المجال في الممارسات الإنسانية والمؤسسات والسلوك**"[2]. فالخطاب يظهر في المؤسسات كما يظهر في سلوكيات الأفراد من خلال دراسته لجنون داخل المؤسسات الإستشفائية والرغبة الجنسية في سلوك الأفراد، وكيفية معالجتها بإخضاعها للخطاب،" **للخطاب دوراً واعياً يتمثل في الهيمنة التي يمارسها في حقل معرفي ومهني ذلك الحقل على أهلية المتحدث وصحة خطابه ومشروعيته، وما إلى ذلك من ملابسات تشير بوضوح إلى إنتاج الخطاب، وتوزيعه ليس حراً أو بريئاً كما قد يبدو من ظاهره**"[3].النص ليس بريئاً فهو يخفي إيديولوجيا متناقضة وراء خصوصيته النصية الجمالية والبلاغية ، يجب أن ننظر إليه على أنه فعل متواضع ومقصود لا بوصفه بنية لغوية.

"**يؤطر الخطاب ضمن عدد من المبادئ باحثا في استراتيجيات الخطاب تبعا للمبادئ التي تتخلص في مجالات المعرفة والذاتية والسلطة، فالأهمية تكمن في العلاقات التي تنشأ بين عناصر الخطاب وتكوّن في مجملها نسقا خفيا يوحد مجموع المعارف والعلوم**"[4]. فالممارسة الخطابية تتكون من مجموعة أبنية وأنساق بيد أن هذه الأخيرة ليست لغوية فقط فالخطاب أحداث

1- بيل إشكروفت وأخرون ، الدراسات ما بعد الكولونيالية ،مرجع السابق، ص 103.

2- ألنيا لوميا، في نظرية الاستعمار وما بعد الاستعمار الأدبية، مرجع سابق ص 50.

3- ميجان الرويلي وسعد البازغي ، دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، المغرب ، ط 3، 2002 ، ص 156.

4 - رامي أبو شهاب، الرسيس والمخاتلة ، مرجع سابق ،ص45.

ووظائف أكثر منه تشكيلية لغوية."**إن الممارسة الخطابية لا تحيل إلى الذات، بل هي قواعد موضوعية وتاريخية محددة زمنيا ومكانيا، تحددها الموضوعية الوظيفية المنطوقة أو الخطابية فالممارسة الخطابية تتعلق بالخطاب و بوظيفته**"[1]. الخطاب الناجح هو الذي ينتج عنه أثر عملي في حياة المخاطَبين، بتغيير في أفكارهم وسلوكهم حتى يكون الخطاب ناجحا لابد من توفر صفات في صاحب وصفات في الخطاب ذاته.

أما "**آنيا لومبا**" فترى بأن الخطاب "**كما تمت ممارسته يعني النصوص الأدبية و تمثيليات ثقافية أخرى بكلمات أخرى (...) كان يقصد به كشف العلاقات المتبادلة بين الاديولوجي والمادي بدلا من تداعيهما إلى بعضها**"[2]. فالإمكانيات التي تحملها اللغة كالمغالطة والقدرة على التمويه لها قدرة على تعبير الموقف الخطاب سلطة ذاتية من خلال اللغة لذلك يجب النظر إلى الخطاب كمجموعة عناصر تعمل في استراتيجيات مختلفة.

ويعتبر الخطاب كمنظومة لغوية من أهم المحاور التي ركزت عليها الدراسات ما بعد الكولونيالية في تحليل نظريات الاستعمار وعلاقتها بالسلطة.ويتسع مفهوم الخطاب لدى "**ميشال فوكو Michel Foucault** " من الأدب إلى تخصصات علمية خارج النطاق الأدبي ، والخطاب بالنسبة له حقيقة مادية كشيء مكتوب أو منطوق مرتبط بالمؤسسات، فليس بالضرورة أن يكون ناتج عن ذات فردية فقط ،بل يتجاوزها ليكون خطاب مؤسسة أو فترة زمنية أو فرع معرفي"[3].

يضيف **فوكو**: "**إن إنتاج الخطاب في كل مجتمع هو في نفس الوقت إنتاج مراقب ومنتقى ومنظم ومعاد توزيعه من خلال عدد من الإجراءات التي يكون دورها الحد من سلطته ومخاطره، والتحكم في حدوثه المحتمل وإخفاء ماديته الثقيلة والرهيبة**"[4]. فالخطاب يوجه ويسير وفق مقاصد المؤسسة المنتجة ،ويخضع للرقابة والانتقاء حتى يسهل في التحكم في محتواة ،لأنه حسب فوكو بدل من يكون محايداً في طرح قضايا حساسة مؤثرة في المجتمع يصبح قوة استراتيجة يترجم الصراعات وأنظمة السيطرة، لذلك تسعى المؤسسات الرسمية إلى احتواء الخطاب وإخضاعه للرقابة المتشددة تسمح له بالظهور أو التلاشي.

1- عبد الرحمان التليلي ، فوكو الحفريات منهج أم فتح في الفلسفة ، مجلة عالم الفكر ، الكويت ، العدد 4، 30 أفريل 2002، ص 40 .

2- أنيا لومبا ، في نظرية الاستعمار وما بعد الاستعمار الأدبية ، مرجع سابق ، ص 65 .

3- ينظر، مشيل فوكو، نظام الخطاب، تر: محمد سبيلا، ص.4

4- المرجع نفسه ، ص 4.

"**إن الخطاب شيء من بين كل الأشياء موضوع صراع من أجل الحصول على السلطة، فهو ليس انعكاسات للصراعات السياسية بل هو المسرح الذي يتم فيه استثمار الرغبة فهو ذاته مدار الرغبة والسلطة.إن حقيقته منطوق ما ليس في صمت معناه أوفي الكلام الأخرس الذي تستخرجه عملية التعليق، بل أن حقيقته قائمة في موقعه وفي إستراتيجية المتحدث به...بحيث أن السؤال المتعلق بما يقوله،بل بالذي قاله، ولماذا قاله**"[1]. فالخطاب يدور حول محورين أساسين هما الرغبة والسلطة. وقراءة الخطاب في نهاية المطاف يؤول إلى تفكيك السلطة وآلياتها، وتجسيد فعاليته وحقيقته في ما لم يقل علنا وصراحة، وتنطلق من الموقع الذي يشغله ومجموعة الأهداف والغايات الطويلة التي يرمي إليها الفرد الناطق للخطاب، أو المؤسسة المنتجة له يتم ضمن تكامل تنظمي مؤسساتي. لذلك نجد الكثير من الخطابات الأدبية أو السياسية أو حتى الإعلامية تتعرض للمصادرة والمنع ، إما من قبل الهيئات المعينة أو من طرف الدولة خصوصا التي تلعب دورها في التأثير على أفكار وميولات المتلقي و توجيه أرائه.

ويعتبر " **إدوراد سعيد**" من الذين تناولوا الخطاب في دراسته للشرق في كتابه **الاستشراق:**"**في اعتقادي أنه من دون مفهوم الخطاب لا يستطيع المرء أن يفهم الحقل المنظم تنظيما هائلا الذي استطاعت أوروبا بواسطته أن تديره، بل وتنتج الشرق سياسياً واجتماعياً وعسكرياً وايدولوجيا وعلمياً خيالياً أثناء عشرة ما بعد التنوير**"[2]. أدى وظيفة تعبوية وسياسية خدمت السياسات الامبريالية وشكل مكوناً أساسياً في صعود الهيمنة الغربية على البلدان العربية.

ولهذا "**فتحليل الخطاب يجعل من الممكن تبع الصلات بين الظاهر والخفي، والمهيمن والمهمش والأفكار والمؤسسات انه يسمح لما رؤية كيفية عمل السلطة من خلال اللغة والأدب والثقافة والمؤسسات التي تضبط حياتنا اليومية**"[3]. إذ يقدم فهم أوفي للمؤسسات الاستعمارية "**فالخطاب ليس مجرد كلام مغروس في سياق تاريخي وثقافي، ويعبر عنه غاليا في إطار سيناريو أو انجاز ثقافي إن الخطاب يتعلق بالممارسة، ممارسة العلوم، وممارسة أكل لحوم البشر، وبمقدار ما يتطور الخطاب يبدأ توليد الممارسة**"[4].هذه الممارسة ليس فردية وإنما مؤسساتية ،تقوم بها مؤسسات تنتج وتوزع تلك الخطابات حتى يتم استهلاكها. مثل المؤسسات

1- ميشال فوكو، نظام الخطاب ، مرجع سابق ، ص 49.

2- ميجان الرويلي وسعد البازغي، دليل الناقد الأدبي، مرجع سابق، ص 156-157.

3- أنيا لومبا ، في نظرية الاستعمار وما بعد الاستعمار الأدبية ، مرجع سابق ، ص 58.

4- المرجع نفسه ، ص 109.

الإعلامية مراكز الأبحاث أقسام الكليات والجامعات...الخ ،وكلما زاد مستوى وقوة الخطاب كلما زادت ممارسته وتوزيعه في المجتمع ، فالخطاب والاستعمار متلازمان و متوازيان في فعلهما اتجاه الشعوب المستعمرة.

2-2 مفهوم الخطاب الكولونياليColonial Discoure :

إن الحديث عن فترة الكولونيالية والتوسعات الإمبريالية والنتائج التي أفرزتها لم تقتصر على الجانب السياسي والاقتصادي فقط، بل شملت الفروع العلمية المتخصصة كذلك وخصوصا الأدب فالخطاب من أهم الوسائل التي عبرت عن التجربة الاستعمارية التي غطت معظم أنحاء العالم في العصر الحديث، فالاستعمار وخطابه متلازمان كون هذا الخطاب نشأ داخل المنظومة الكولونيالية بكل هياكلها، وكان موازيا لها في فعلها اتجاه الشعوب المستعمرة سمي خطاباً. كولونيالياً بوصفه أداة لفرض السلطة يعرفه بيل اشكروفت " **الخطاب الكولونيالي هو مركب العلامات والرموز والممارسات الذي ينظم الوجود الاجتماعي داخل العلاقات الكولونيالية**".[1] فالخطاب كممارسة لغوية صورة انعكاسية للواقع الاجتماعي المنتظم في بيئة استعمارية وعلاقة هذا الواقع بالكولونيالية يتضمن أفكار وتوجهات و ديولوجيات الدولة المستعمرة ،وبتعير أدق أفكار الامبريالية الأوروبية التي جسدتها في مستوطناتها في كل من إفريقيا وآسيا.

"**فالخطاب الكولونيالي منظومة من المقولات التي يمكن إطلاقها من المستعمرات والشعوب المستعمرة، وعن القوى المستعمرة وعن العلاقة بينها. وهو منظومة المعرفة والمعتقدات بشأن العالم الذي تحدت داخل أركانه أفعال الاستعمار وعلى الرغم من هذا الخطاب يتم توليده داخل مجتمع المستعمرين وفي حدود ثقافاتهم، فقد صار هو الخطاب الذي قد يرى المستعمرون أنفسهم داخله أيضاً**"[2].حيث نشأ من علاقة التأثير والتأثر في حدود ثقافة المستعمرين وفي إطار الكولونيالية.

كما يشير إلى"**تحليل ما بلورته الثقافة الغربية في مختلف المجالات من نتاج يعبر عن توجهات استعمارية إزاء مناطق العالم الواقعة خارج نطاق الغرب على أساس أن ذلك الإنتاج يشكل في مجمله خطابا متداخلا**"[3]. دراسة معرفة تم تطويرها في سياق ثقافي غربي لتحليل مجتمعات نشأت في مستعمرات مختلفة.

1- بيل اشكروفت وآخرون، دراسات ما بعد الكولونيالية المفاهيم الرئيسية ، مرجع سابق، ص 101.

2- المرجع نفسه، ص 101.

1- ميجان الرويلي وسعد البازغي ، دليل الناقد الأدبي ، مرجع سابق ، ص 158.

تستخدم **أنيا لومبا** مصطلح الخطاب الاستعماري بدل الخطاب الكولونيالي وتعرفه قائلة "**الخطاب الاستعماري مصطلح جديد وهمي للاستعمار، إنه بالأحرى يدل على طريقة جديدة تشترك فيها عمليات ثقافية وفكرية واقتصادية أو سياسية معا في تشكيل وإدانة وتعرية الاستعمار**"[1]. تحليل الأبنية الثقافية والفكرية والاقتصادية والسياسية لإدانة وتجريم الاستعمار من خلال المؤسسات وتقاطعاتها مع المعرفة والسلطة ،حيث روج الخطاب الغربي أن ثقافة الشعوب المستعمرة وأنظمتها الفكرية والاجتماعية والسياسية، هي أسباب تخلفها ودونيتها لذلك تسعى للسيطرة عليها واستبدالها بأخرى غربية.

"**ويعتمد الخطاب الكولونيالي بصورة خاصة على أفكار العرق التي بدأت تبرز مع ظهور الامبريالية الأوروبية ومن خلال هذه الفروقات والتمايزات، كان الخطاب الكولونيالي يصور الشعوب أيا كنت طبيعة تشكيلاتها الاجتماعية والتواريخ الثقافية بوصفها بدائية في مقابل شعوب المستعمرين المتحضرة**"[2]. فالتمييز العنصري على أساس خصائص بيولوجية والجوانب المادية هو البنية التي يستند إليها الخطاب الكولونيالي ليبرر الانتهاكات الاستعمارية الأوروبية. إذ تعامل الشعوب المستعمرة بشكل مختلف اجتماعياً وقانونياً، فالفرد الأوروبي يتميز بتفوق عرقي على غيره من الأجناس البشرية،وهي أوهام عقلية أفرزتها مفاهيم الامبريالية الأوروبية.فالتصور الأوروبي مبني على نظرة ثنائية للعالم(**برابرة/متحضرون**)، (**التمدن/التوحش**)، (**اسود/أبيض**)...الخ. وأن الغرب هو المنتج للقيم الإنسانية والمحدد الوحيد لانتقال أي حضارة أو ثقافة من البربر إلى المدينة وعتقهم من التخلف والهمجية، ففرنسا مثلاً الحاملة للواء التحضر والرسالة الحضارية إلى إفريقيا وانقاد المغاربة من الظلمات وقيادتهم للانخراط في العصر، ففي الذكرى المئوية للاحتلال الجزائر نشرت بعض الأعمال الأدبية لكتاب تدعى أنهم جزائيين كي تظهر للعالم أن وجودها في الجزائر لدعاوي حضارية، وكيف أن جمعة تعلم من سيده المتحضرة وأصبح يكتب باللغة الفرنسية.وأن الزنوج من أدني الأعراق البشرية وهي مجتمعات بدائية وخلقت من أجل الاستعباد، حتى وإن حاولت الخروج من هذه الصورة النمطية فإنها تبقي في فلك المستعمر وهذا ينطبق على الزنوج بالخصوص،"**الزنجية بإرساء ركنها الأساسي على التقاليد الفكرية الأوروبية مهما كانت شجاعتها في محاولة تغير تصوراتها (مع عدم المساس**

2- أنيا لومبا، في نظرية الاستعمار وما بعد الاستعمار الأدبية ، مرجع سابق، ص64.

3- بيل اشكروفت وآخرون ، دراسات ما بعد الكولونيالية ، مرجع سابق ، ص 102.

بمعتقداتها) كانت بمثابة طفل لقيط جدير بالاهتمام، ليس هذا حسب بل حتى يعتبر حالة للتبني الكريم من جانب المصالح الاديولوجية الأوروبية"[1]. الأوروبيون يحتلون أعلى الهرم و له الأفضلية دائما و صاحب السلطة و الهيمنة على الأعراق الأخرى ووتعتبر استعمار الزنوج تبني أجادت به النفس الأوروبية،وأن استبعاد الزنوج بمثابة شرف لهم، عكس ما يحمله الفكر الأوروبي عن الإستعمار إذ "**يخفي الاستعمار الخطاب الكولونيالي هذه المنافع في مقولات تدور حول دونية المستعمر و الطبيعة البدائية للأعراق الأخرى و الوضاعة الهمجية التي تسم المجتمعات المستعمرة"**[2]. فهذه المقولات التي يحملها الخطاب الكولونيالي تخفي المقولات الحقيقية للاستعمار التي تسعى إلى سلب الثروات واستغلال الموارد الطبيعية واضطهاد الشعوب لخدمة مصالحها والحفاظ على مكانتها السياسية والاقتصادية.

إن المؤسسات والنصوص والمعرفة الاستعمارية المكرسة لمعرفة المجتمعات تسمى جملة وتفصيلا بالخطابات في تستعمل من طرف المراكز الاستعمارية لإخضاع الشعوب المحتلة والمستعمرة. "**كان الخطاب الاستعماري قويا و محكما و مؤثرا شأنه في ذلك شأن الوسائل التي وصلته إلى الشرف والامتثال للقوة الاستعمارية رافقه امتثال لخطابها في وصف الظواهر الأدبية والفكرية، وتم استبعاد أشكال التعبير كافة التي لا تنطبق عليها الأوصاف الجاهزة فهمشت وصارت خارج مدار الاهتمام، نبذت لأنها تذكر بمرحلة ما قبل التحديث الغربي"**[3]. فالخطاب يخلق ويفصل ويشحن بالإيديولوجيات والأفكار الغربية، ويستوعب على أشكال المعرفة الجاهزة من قبل سلطة الأكاديميين والمؤسسات،عكس الأشكال التعبيرية الأخرى كالحكاية والأسطورة وأنماط الثقافة الشعبية و التي تهمش وتستبعد .

من خلال التحليل السابق نصل إلى مسألة مهمة جدا فيما يعلق بماهية هذا الخطاب الاستعماري هل هي كلها متجانسة و تملك نفس النظرة أما أن هناك اختلاف؟ "**يمكن القول بأن وجود خطابات مختلفة في فترة الاستعمار لا تصور كلها الأهالي بطرق سلبية يعود إلى اختلاف السياق الذي كتبت فيه نصوص لعينها، فالثقافات التي قاومت التغلغل الاستعماري نعتت بالهمجية وكان ذلك مبرراً للقضاء عليها، أما الثقافة التي رضيت بالحكم الاستعماري وربما**

1- بيل اشكروفت وآخرون ، الرد بالكتابة،المنظمة العربية لترجمة ، بيروت ، لبنان، ط1، 2010، ص 45.

2- المرجع نفسه، ص 102.

3- عبد الله إبراهيم، السردية العربية الحديثة المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2003، ص 12.

تعاونت مع السلطات الاستعمارية في إقامة المستعمرات.فإنها كانت توصف عموما بالثقافات المتحضرة والمحبة للسلام ولا تزال هذه النظرة سائدة إلي اليوم عبر ما يسمى بقانون تمجيد الاستعمار"[1].فقد كتبت عدة نصوص اختلفت مواضيعها وطريقة تناولها لظاهرة الاستعمار ونقد السياسة الاستعمارية والممارسات القمعية والوحشية ضد الأهالي كانت تمحي أثارها،ولهذا لم يصل إلينا إلا القليل من هذه النصوص. أما النصوص التي كانت تحمل ولاء للاستعمار وتعمل علي دعمه كانت في نظر المستعمر هي كتابات متحضرة وكان يدعمها باستمرار وتوفير الظروف الناسبة لها للظهور.

" **فالمستعمر مبني داخل خطاب الكولونيالي الأساسي المعوق وهو الخطاب الذي يحدد تدني مرتبة السكان الآهلين بغية تبرير غزوة وما يترتب عليه من توليه حكمهم**"[2]. فالخطاب متوقف على أعمال السلطة و المنظومة الفكرية والثقافية للفكر الاستعماري، وبذلك فكل خطاب هو خطاب استعماري.

إن تحليلات أنواع لخطاب الاستعماري هي في غاية الفائدة في تفكيك هذا الافتراض بالضبط القائل أن عملية منظمة بإحكام فقط هي ما يمكن أن يكون حافزاً ايدولوجيا. طبعاً، لم يكن الاستعمار يملك اديولوجية واحدة بل عدة اديولوجيات، وهذه الاديولوجيات كانت ظاهرة في مئات من الممارسات المؤسساتية والثقافية"[3]. تؤدي الوصول إلى المركزيات المتسلطة يتحين الفرصة لتفرض سطوتها، وتبرمجها وفق مطامحها عبر مختلف المؤسسات كالمؤسسات الأدبية، الاقتصادية، السياسية...الخ فالفكر الأوروبي لا يحتوي على ايدولوجيا واحدة فقط وإنما على اديولوجيات مختلفة تخدم بعضها البعض للخطاب قدرة على اكتشافها.

3 الدراسات ما بعد الكولونيالية Études post-coloniales :

3 – 1 مفهوم ما بعد الكولونيالية

تعد الدراسات ما بعد الكولونيالية من أهم الدراسات التي ظهرت بعد زوال الاستعمار التقليدي لتعيد تشكيل الصورة التقليدية و طريق التحليل الثقافي "**ويتناول مفهوم ما بعد**

1– طارق ثابت، هوية الأدب بين الحضور والغياب في الخطاب النقدي العربي ما بعد الكولونيالي، مجلة الأثير،ع 12، ديسمبر 2014، ص 104.

2– بيل إشكروفت و آخرون ، الرد بالكتابة ، مرجع سابق ، ص 292.

3– أنيا لومبا، في نظرية الاستعمار وما بعد الاستعمار الأدبية ، مرجع سابق ، ص 120.

الكولونيالية أثار الاستعمار على الثقافات و المجتمعات"[1]. أي الفترة إلى أعقبت زوال الاستعمار و حصول المستعمرات على استقلالها. "**و مصطلح ما بعد الكولونيالية أفرزته الفترة المعاصرة في منتصف القرن العشرين، و يعد من المصطلحات الشائعة في عديد الميادين الثقافية، نظرا لما يتضمنه من شمولية واتساع يجعلانه يتمتع بنوع من المرونة تؤهله لأن سيتخدم في كثير من المجالات وهو يشير بالتأكيد إلى تلك المرحلة التي أعقبت التخلص من الهيمنة الاستعمارية، والاحتلال العسكرية الغاشم مباشرة من أجل تحليلها إلى جانب تعبيره عن حركة النقد الأدبي والاجتماعي حاولت الرد على الامبريالية الغربية والأوروبية، وما تسبب فيه من أثار تبعة على الشعوب**"[2]. دراسة أثار الاستعمار على الثقافات والمجتمعات وكيفية السيطرة عليها والتعاملات السياسية، خلاف ما كانت تظهر عليه في فترة الكولونيالية.

إن "**ما بعد الكولونيالية**" تغطي كل الثقافات التي تأثرت بالعملية الاستعمارية أو الإمبريالية منذ بدايتهما إلي اليوم. بالإضافة إلى ذلك يستخدم مصطلح ما بعد الكولونيالية "**ليشمل كل ثقافة تأثرت بالعملية الامبريالية منذ اللحظة الكولونيالية حتى يومنا هذا لاستخدام إلى استمرار هذا الأشغال طوال العملية التاريخية التي بدأت بالعدوان الامبريالي الأوروبي**"[3].

فدلالة المصطلح لا تتضمن فقط ما بعد المرحلة الاستعمارية، بل يشمل الحركة الاستعمارية منذ بداية تأثيرها على الثقافات حتى يومنا هذا في مقارنة نقدية تحاول العثور على القاسم المشترك بين مجتمعات العالم المستعمرة في مواجهة الاستعمار، وما تركته من أثار على الثقافات وقد ظهرت صفة ما بعد كولونيالية في الأوساط الفرنسية المثقفة لتدل على جملة التغيرات التي طرأت على العالم منذ نهاية الامبرياليات الاستعمارية خاصة في الدول الحديثة الاستقلال[4].

"**لقد انتشر مصطلح ما بعد الكولونيالية في الأوساط المثقفة الأوروبية و الأمريكية و بين باحثين تعود أصولها إلى المستعمرات القديمة خاصة الهند**"[5]. الذين أتيحت لهم الفرصة بالدراسة في الولايات المتحدة الأمريكية، والذين أثبتوا جدارتهم في هذا النوع من الدراسات مثل سبيفاك بالإضافة إلى عرب وأفارقة وهنود كانوا مغتربين بأمريكا.

1- بيل اشكروفت وآخرون ، دراسات ما بعد الكولونيالية المفاهيم الرئيسية، مرجع سابق ، ص 282.

2- أمال علا وشيش ، ما بعد الكولونيالية، مرجع سابق، ص 43، 44.

3- بيل اشكروفت آخرون ، الرد بالكتابة، مرجع سابق ، ص16.

4- ينظر، المرجع نفسه ،ص 44.

5- المرجع نفسه ،ص 44.

وقد تعددت دلالات استخدام المصطلح ليصبح "**طريقة لتنظيم نقد الأشكال الإجمالية للتاريخانية الغربية كمصطلح يتألف من دمج مصطلحين لفكرة معدلة عن الطبقة، كمجموعة فرعية لكل من ما بعد الحداثة و ما بعد البنيوية**"[1]. فهو يستخدم لوصف مجموعة غير متجانسة.

المصطلح يستخدم ببساطة كمرادف لمصطلح "**ما بعد الاستقلال**" وفحص أثار الكولونيالية وكيفية الاستجابة لها، وهذا ما تضمنته أغلب الروايات الحديثة. وما بعد الكولونيالية باعتبارها حاجزاً على قطعية معرفية بين ما قبل الاحتلال وما بعده يتضمن هذا المدلول فها لفترة الاحتلال والكولونيالية نفسها لا قفزاً إلى ما بعدها. "**فعالم ما بعد الكولونيالية هو عالم يشهد تحول المجابهة الثقافية التدميرية نحو قبول الاختلاف على قدم المساواة، كما بدأ كل من منظري الأدب ومؤرخي الثقافة إدراك عبر الثقافي بوصفه نقطة نهاية ممكنة، كما يبدوا واضحا انه تاريخ بشري لانهائي من الغزو والإبادة بررته أسطورة نقاء الجماعة بوصفه أساسا يمكن أن يستقر فوقه بإبداع عالم ما بعد الكولونيالية**"[2].كأحد تجليات النقد الثقافي الذي جاء رداً على تجديدات البنيوية التي حصرت الخطاب في الجوانب اللغوية والبلاغية دون الالتفاف إلى المحتوى الثقافي والإحالات المرجعيات السياسية والاجتماعية، التي يتضمنها النص حيث يسعى إلى الكشف عن العلاقات الخفية التي تربط أقطاب الثقافة الغربية بالظاهرة الاستعمارية، وعن تمركزها حول نقاء السلالة أو الجنس البشري الأوروبي كمبرر قوي للاستعمار.

"**إن مصطلح ما بعد الكولونيالية يقودنا في حقيقة الأمر إلى حالة الصراع بين مختلف القوى بخاصة من طرفي الصراع أي المستعمرة و المستعمر، و كان مصطلح "آلما بعد" ينبأ عن الانتقال من وضع معين له خصوصياته إلى وضع أخر مختلف تماما بينما واقع الأمر هو غير ذلك يشكل مطلق فالمستعمر مازال حاضراً بمختلف صنوف تهديداته، بل وبأساليب أكثر رقيا ونجاعة**"[3]. بدرس علاقة القوة والمعرفة والإخضاع الثقافي بين أي شعب مستعمر وشعب مستعمر على مر التاريخ والمستمرة إلى يومنا هذا ما يعرف بالامبريالية الخفية أو العولمة بوسائل أكثر تجسيدًا للفكر الاستعمار بطرق غير مباشرة وظاهرة ،" **وأننا أصبحنا في مرحلة "ما بعد" في حين أن معظم الأمم لا تزال خاضعة ثقافياً و اقتصادياً للدول الصناعية الغنية عبر أشكال**

1- بيل اشكروفت وآخرون ، دراسات ما بعد الكولونيالية المفاهيم الرئيسية، مرجع سابق ،ص 285.

2- بيل اشكروفت ، الرد بالكتابة، مرجع سابق ، ص 71.

3- أمال علا وشيش ، ما بعد الكولونيالية، مرجع سابق، ص 55.

متنوعة من الاستعمار الجديد حتى وإن كانت مستقلة اسما"[1]. لذلك تعتبر مدلولا زمنيا للإشارة إلى وضع الشعوب والدخول في فترة ما بعد الاستقلال .

"**كما يستخدم مصطلح ما بعد استعماري ليغطي كل الثقافات التي تأثرت بالعملية الامبريالية من لحظة الاستعمار إلى يومنا الحالي، ذلك أن هناك خطا متصلا من الاهتمامات على مدار العملية التاريخية التي بدأها العدوان الامبريالي ... و نحن نشير إلى ملائمة المصطلح النقدي الجديد العابر للثقافات الذي ظهر في السنوات الأخيرة وللخطاب الذي تكون منه ذلك النقد**"[2].فهو يشير إلى حقل الدراسات الثقافية والنقد الأدبي،فهو مقولة سياسية في أساسها يبحث عن قاسم مشترك بين مجتمعات العالم الثالث المستعمرة التي تتشكل من قوميات مختلفة نهضت كلها لمواجهة الاستعمار الأوروبي، وما تركه من أثار والمشترك من فنون و أدب بين هذه المجتمعات.

"**أما منهج ما بعد الكولونيالية فهو إلى حد كبير ذو توجه سياسي يسعى إلى تفكيك الحدود و البنيات التي تكرس الهيمنة و السيطرة و السطوة و ترسيخ علاقات بين قوى غير متكافئة من خلال تقابلات ثنائية مثل "أنا/الأخر" و "نحن و هم" و "العالم الأول والعالم الثالث" و الأبيض والأسود**"[3].أي فضح الخطاب الاستعماري وتفكيك مقولاته المركزية التي تعبر عن الهيمنة و التميز العرقي والطبقي،فالخطاب الاستعماري يفترض وجود ثنائية ضدية ثابتة ،ولم يعترف بالشراكة الإنسانية ليتمكن من تملك الأخر.

"**فالدراسات ما بعد الكولونيالية إنما اتصلت وعبرت عن وعي وطموح حركات الجماعات المقهورة والمنبوذة والمهمشة، التي وقعت أسيرة منطق استئصالي عنصري ولأنها أمنت باديولوجيا التحرر راحت تنهل من مرجعيات ثقافية عديدة فلم تكن مجرد نصوص تناظرية فقط،بل عملت في كثير من الأحيان على إنتاج خطاب تحريضي لا يكتف بمجرد الرمزية الإيحائية فحسب**"[4]. إيصال صوت الشعوب المضطهدة المستعمرات التي تعرضت للعنصرية والتهميش وإعادة النظر في تاريخ آداب المستعمرات التي واجهت الاستعمار الأوروبي وإعادة كتابة التاريخ.

1- بيل إشكروفت وآخرون ،الإمبراطورية ترد بالكتاب،تر:خيري دومة ،أزمنة لنشر والتوزيع ،عمان ، الأردن، ط1، 200. ص15.

2- المرجع نفسه ، ص 12.

3- نبيل راغب ،موسوعة النظريات الأدبية ، الشركة المصرية العالمية لنشر لونجمان ، ط1، 2003،ص 550.

4-أمال علاوشيش ، ما بعد الكولونيالية ، مرجع سابق ، ص 50.

الدراسات ما بعد الكولونيالية قد "جاءت **باعتبارها مؤسسة فاعلة إلى تفكيك الخطاب الاستعماري وإلى إعادة النظر في تاريخ آداب الامبريالية السابقة بحيث تشمل المستعمرات التي واجهت الاستعمار الأوروبي**"[1].وكشف العناصر المسطرة للقوى السياسية والثقافية التي تعطي استمرارية للنفوذ الاستعماري، وقراءة آدابها من جهة نظر مختلفة تسعى لكشف الأنظمة السياسية والأنماط الثقافية الأوروبية من خلال الإرث الأدبي أثناء الفترة الكولونيالية .

هذه الدراسات نشأت على إثر انهيار الإمبراطوريات الأوروبية وما تبع ذلك من ظهور الدراسات الثقافية لمناهضة الهيمنة ،ويدرس مجال الدراسات الكولنيالية بطرق عديدة لعل أبرزها:

1/ دراسة مستعمرات أوروبا السابقة منذ استقلالها أي كيف استجابة لأرث الكولونيالية الثقافي أو تكيفت معه أو قاومته أو تغلبت عليه خلال الاستقلال، وهنا تشير صفة "ما بعد الكولونيالية" إلى اتفاقات ما بعد نهاية الكولونيالية والفترة التاريخية التي تغطيها هي تقريب النصف الثاني من القرن العشرين.

2/ دراسة مستعمرات أوروبا السابقة منذ استعمارها أي الكيفية التي استجابت بها لأرث الكولونيالية الثقافي أو تكييف معه أو قاومته أو تغلبت عليه ،وهنا تشير صفة ما بعد الكولونيالية إلى ثقافات ما بعد بداية الكولونيالية والفترة التاريخية التي تغطيها هي تقريبا الفترة الحديثة بدءً من القرن السادس عشر.

3/ دراسة جميع ثقافات المجتمعات أو الأمم من حيث علاقة القوة التي تربطها بسواها من الثقافات المجتمعات أو الأمم الأخرى أي الكيفية التي أخضعت بها الثقافات الفاتحة الثقافات المفتوحة لمشيئتها، وهنا تشير صف ما بعد الكولونيالية إلى نظرتنا في أواخر القرن العشرين إلى علاقات القوة السياسية والثقافية أما الفترة التي تغطيها هي التاريخ كله[2] .

3-2- مرتكزات ما بعد الكولونيالية :

وقد ارتكزت الصياغات الاستعمارية على مسائل العرق الطبقية التهجين النوع والجنوسة وما لعبته هذه المسائل من دور في الخطاب الاستعماري وما بعد استعماري، والتي تؤسس العلاقة الاستعمارية بين المستعمِر والمستعمَر.

1- طارق ثابت،هوية الأدب بين الحضور والغياب في الخطاب النقدي العربي مابعد الكولونيالي ، مرجع سابق، ص 105.

2 - المرجع نفسه ،ص 104.

3-2- أ مفهوم العرق Race:

تعرف كلمة "عرق" كما جاءت في معجم اللغة العربية المعاصرة."**عرق: ج أعراق و عروق: وريد أو شريان مجرى الدم في الجسد، وهي جنس سلالة من الناس يصنفون بناءًا على التاريخ أو الجنسية أو التوزيع الجغرافي المشترك "العرق القوقازي/الأبيض له انتماء عرقي"**[1].

ويرى ابن منظور: "**عرق كل شيء أصله**"[2].من خلال التعريفين السابقين نجد بأن معنى كلمة عرق هي السلالة أو الأصل، وبناءًا على هذا " **يستخدم هذا المصطلح لتصنيف البشر إلى مجموعات متمايزة جسمانيا و بيولوجيا و وراثيا، وتفترض فكرة العرق بادئ أن البشرية تنقسم إلى أنواع طبيعية لا تتبدل يمكن التعرف عليها استناداً إلى الملامح الجسمانية التي تنتقل عبر الدم وتسمح بالتميز بين الأعراق النقية**"[3]. كما يستخدم المصطلح للدلالة على التغير البشري من حيث الثقافة والتقاليد واللغة والأنماط الاجتماعية والأسلاف، أي تركيب مؤلف من القيم والمعتقدات والأعراق والأذواق والسلوكيات والخبرات والذكريات والولاءات المشتركة"[4].

أما "**الموسوعة النظرية الثقافية**" فتعرف العرق بأنه:"**نمط من أنماط تصنيف البشر يميز بينهم على أساس الخواص البدنية (كلون البشرة و ملامح الوجه مثلاً) التي يدعى أنها تنشأ عن الوراثة الجينية**"[5]. فاتصاف مجموعة من البشر بمجموعة من الصفات المميزة يرجع إلى وجود فارق جيني أو فطري متأصل في هذا العرق تتوارثه الأجيال اللاحقة.

في حين يعرف "**كروجمان Krugman**" العرق على أنه "**مجموعة فرعية من الناس تمتلك مجموعة محددة من الصفات الجسمية التي تعود إلى أصل جيني، وهذه المجموعات من الصفات تساعد، بدرجات متفاوتة على تميز الجماعة الفرعية عن غيرها من الجماعات الفرعية الأخرى وهي تنتقل من جيل إلى أخرى بالوراثة شريطة أن تظل جميع العوامل التي أدت في الأصل إلى ظهورها ثابتة نسبياً. ويمكن القول على وجه العموم أن الجماعات البشرية التي تملك هذه الصفات تسكن أو سكنت في الماضي في منطقة جغرافية محددة ذات حدود واضحة**

1- مجمع اللغة العربية المعاصرة، مرجع سابق، ج 2، ص 1488.

2- ابن منظور جمال الدين بن مكرم ، لسان العرب، دار صادر، بيروت، م10، ط1، ص 241.

3- بيل اشكر وفت، الدراسات ما بعد الكولونيالية، مرجع سابق ص 297.

4- ينظر بيل اشكروفتو أخرون ، الرد بالكتابة، مرجع سابق، ص 329..

5- اندرو اديجار وبيتر سبيد جوك، موسوعة النظرية الثقافية، المفاهيم المصطلحات الأساسية ، تر هناء جوهري، المركز القومي للترجمة، ط2009،1 ،ص 314.

المعالم"[1]. فكل التعريفات السابقة تتضمن معاني بيولوجية تدخل فيه عدة عناصر مثل: الوراثة الشكل، اللون،...الخ .هذه العناصر هي عناصر متساوية لدى كل البشر ،والعروق المتماثلة لم تثبت وجود أفضلية عروق على أخرى، ولكنها استغلت بطريقة معاكسة في السياسات الاستعمارية والامبريالية حيث أصبح شعارها العرقية وتمارسها على أرض الواقع فتكون الأعراق منحطة وبعضها راقي، وأن مصير الإنسانية مرتبطة بالأعراق العليا.

"**ويرتبط العرق ارتباطاً وثيق الصلة بشكل خاصة بصعود الكولونيالية نظراً لأن تقسم المجتمع البشري بهذا الشكل لا ينفصم عن حاجة القوى الكولونيالية لفرض هيمنتها على المستعمرين،ومن ثم تبرير المشروع الامبريالي .إن الفكر العرقي والكولونيالية يشتركان في نفس الزخم الساعي إلى التميز الثنائي بين المتحضر والبدائي ،وفي نفس الحاجة الملحة لترتيب الأنواع البشرية في شكل هرمي، ويترجم حقيقة الاستبداد الكولونيالي إلى نظرية تسويغية مهما كانت زائفة، بدأ الفكر الأوروبي العرقي في خلق هيكل هرمي التنوع البشري كان من الصعب زحزحة من مكانه**"[2]. حيث سعت القوى الامبريالية إلى التميز القائم على أساس العرق أو اللون، ووضع نماذج وتصورات عن الآخرين مبنية على الأنماط العرقية أو السلالية وبأن هناك جماعات أو أعراق أدنى منزلة من جماعات أو أعراق أخرى .

لذلك نجد دعاوي الاستعمار تركز على" **إعلاء شأن الجنس الأبيض على الشعوب غير البيضاء قد خلق إحساس بالانقسام والاغتراب في هوية الشعوب المستعمرة غير البيضاء، ففي ظروف الاستعمار تم اعتبار تاريخ المستعمر الأبيض وثقافته ولغته وتقاليده ومعتقداته ،كونية ومعيارية ومتفوقة بالنسبة لثقافة المستعمرة، وهذا يخلق إحساس قويا بالدونية داخل محاولة لمواجهة هذا المستعمر ويقود إلى تبني لغة المستعمرة وثقافته وتقاليده في محاولة لمواجهة هذا الشعور بالدونية**"[3]. فنزعة التمركز العرقي قامت بترتيب مختلف الأنواع البشرية في نظام تصاعدي يحتل عليها الأوروبيين البيض أعلى المراتب، والأفريقيين الزنوج أدنى المراتب فالعرق أو الجنس الأوروبي هو وحده المعني بامتلاك الثقافة أو الحضارة ولا يمكن للأعراق الأخرى امتلاكها إلا بفعل مساعدة يقدمها الجنس الأبيض، وهذا ما يخلف شعور بالدونية لدى شعوب المستعمرات

1-- رالف لينتون ، الانتروبولوجيا و أزمة العالم الحديث، تر، عبد المالك الناشف المكتبة العصرية ، بيروت د ط ، 1967، ص94.

2- بيل اشكر وفت، دراسات ما بعد الكولونيالية المفاهيم الرئيسية ، مرجع سابق ،ص 297.

3- بيل اشكر وفت، الإمبراطورية ترد بالكتابة، مرجع سابق ، ص 12.

لكي تتم الهيمنة والتسلط عليه، وتتولد لديه عقدة الشعور بالنقص اتجاه المستعمر يسعى الى تجاوزها بتقليده و تمثيله في لغته و ثقافته.

" **فيصبح بذلك الإنساني الدوني والأخر والعبد يتبنى كل ما هو غربي ،و يدين كل ماله علاقة بثقافته الأصلية فيعيش في تبعية دائمة للإنسان المتفوق في نظره يعاني كل أنواع العرقية**"[1] . و بذلك تتولد العنصرية داخل المجتمعات و خصوصا الاستعمارية.

"**فالعرق كما يبدو ما هو منتج خطير لتجيز وعلى الأقل للتفكير الخاطئ ،فالعنصرية في جوهرها عبارة عن اعتقادات بأن الجنس البشري يتكون من عدد من الأجناس البشرية الفرعية المتمازة بيولوجيا والمنفصلة والمختلفة أي أعراق**"[2]. فالعنصرية ترجع إلى العرق و تلعب دوراً مهما في التقسيمات البشرية إلى فئات دونية وأخرى متفوقة يهدف إلى استعمار المختلفين عرقياً وثقافياً عن الجنس الأبيض. فالعرقية العنصرية هي إسترتيجية كولونيالية و ترجع إلى الحضارة الأوروبية " **ليس التنميط العرقي نتاج الاستعمار الحديثة و حده، بل يعود إلى العصور الإغريقية واليونانية التي تقدم بعض القوالب الموجودة للصور الأوروبية التالية للبرابرة والخارجين**"[3]. فممارسة العرقية ضد كل ما هو خارج عنها وتحاول التفريق بين الأعراق، مثلما فعلت فرنسا في الجزائر أثناء فترة الاستعمار، باتباع سياسة فرق تسد بين القبائل والعرب التي أثارة الفتنة وعنصرية بين أفراد شعب الذين يختلفون في انتماءهم العرقي لذلك شكل عليه خطر كبير "**ولو أن الفكر العرقي لم يولد من رحم الامبريالية إلا أنه سرعان ما أصبح أحد أبرز الأفكار الداعمة لها، لأن فكرة التفوق التي نشأ منها الفكر العرقي كمفهوم تواءمت بسهولة مع دافعي الهيمنة الامبريالية**"[4].

ويشير بيل اشكروفت إلى أن العنصرية هي السبب الفعلي لوجود فكرة العرق، وهي طريقة تفكير تعتبر الصفات الجسمانية الثابتة لجماعة ما مرتبطة بشكل مباشر ونسبي بسمات نفسية و فكرية.

1- فرانز فانون، من أجل إفريقيا تر، مجيد الميلي، دار الطليعة للطباعة و النشر ،لبنان، ط 1، سنة 1966، ص 21.

2- سايمون ديورينغ ، الدراسات الثقافية مقدمة نقدية ، مرجع سابق، ص 263-264.

3- آنيا لومبا في نظرية الاستعمار وما بعد الاستعمار الأدبية ،مرجع سابق ،ص 114.

4- بيل إشكروفت ، دراسات ما بعد الكولونيالية المفاهيم الرئيسية ، مرجع سابق،ص 297.

3-2 – ب مفهوم الهـجنة Hybridation :

من القضايا التي شغلت الدراسات ما بعد الكولونيالية مصطلح الهجنة أو التهجين أو الهجانة ."**التهجين لغة هو الخلط، التركيب و اللفظة مستمدة منم علم الوراثة و هي تعني في مجال الدراسات ما بعد الكولونيالية اختلاط الثقافات والجماعات من أجل تفكيك المركزية الأوروبية وتجاوز الفكر الاستعلائي الذي ينظر إلى هذه الحالة بأنها ضارة وخطيرة**"[1]. المصطلح في العموم هو نتاج مزيجين مختلفين تماما ،ويستخدم عادة في الزراعة وعلم الوراثة لإنتاج أنواع جديدة، وقد استخدمت الهجنة في خطاب ما بعد الكولونيالية لتعني ببساطة "**تبادل بين ثقافات متعددة** "[2]، ولكن هذا المفهوم حول إلى أسلوب استعماري "**إن الرغبة في النزول إلى هذه الأرض الغريبة...ربما تفتح الطريق لتصور لثقافة عالمية، مبينة ليس غرائبية التعددية الثقافية أو نعددية الثقافات ،ولكن على نقش الهجنة الثقافية والتمفصل حولها**"[3]. بمعنى إنتاج نوع جديد من الثقافة حسب مقاييس ومعايير معينة إذ تبني ثقافة متطورة من ثقافات المجتمع الأصلية، تستهدف بالدرجة الأولى الثقافة الجماهيرية يجعل منها سيطرة سياسية لأنها نابعة من منهج استعماري.

و"**الهجانة الاستعمارية هي فرض إستراتيجية في النقاء الثقافي و تهدف إلى تثبيت الوضع القائم، أما عملياً فأن الأمور لم تجر تلك الطريقة،. فغالبا ما إستعانت الحركات المناهضة للاستعمار والأشخاص المناهضين للاستعمار بالأفكار والمفردات الغربية لتحدي الحكم الاستعماري حقا لقد هجنوا في الغالب مما استلفوه عن طريق مواءمته مع الأفكار الأصلانية وقرأوه من خلال عدستهم التفسيرية، حتى أنهم استعملوه لتأكيد الغيرية الثقافية أو للإصرار على اختلاف لا يمكن إزالته بين المستعمر والمستعمر**"[4].فالتاريخ أطاح بفكرة الثقافة النقية والأصول النقية، وفرض فكرة أن الأمم هي حصيلة تمازج وتفاعلات عرقية وثقافية ،إذ تخلف أشكال ثقافية متعددة داخل مجال الاحتكاك الذي يفرضه الاستعمار والتجربة الاستعمارية مثال واقعي مجسد لعملية الهجنة التي بمقتضاها تتحد العلاقة بين المستعمر والمستعمر." **فالهجنة تشير إلي خلق أشكال متعددة داخل منطقة تماس نتيجة الوجود الكولونيالي، ويتخذ أشكالا**

1- العيد جلولي، الأبعاد المفاهيمية لنظرية ما بعد الكولونيالية مجلة الجمعية الثقافية العراقية في مالوا،ع 51، 2012، ص 24.

2- بيل اشكروفت و آخرون ، دراسات ما بعد الكولونيالية المفاهيم الرئيسية ، مرجع ،سابق ص 200.

3- المرجع نفسه، ص 200.

4- أنيا لوميا، في نظرية الاستعمار و ما بعد الاستعمار الأدبية ، مرجع سابق، ص 178.

عديدة لغوية و ثقافية وعرقية "[1].فهذه التفاعل بين الثقافة والأعراق كانت نتيجة الهجنة " **كما بدأ كل من منظري الأدب ومؤرخي الثقافة,إدراك عبر الثقافي بوصفها نهاية ممكنة لما يبدو واضحا أنه تاريخ بشري لا نهائي من الغزو والإبادة بررته نقاء الجماعة** "[2]. و حسب بيل اشكروفت فان النقاء المتأصل للثقافات لا يمكن الدفاع عنه إلا بالرجوع إلي الشواهد التاريخية المعاينة التي تظهر سمة الهجنة في الثقافات والتي كانت مبررا للاستعمار طيلة عدة قرون.

ولا يقتصر التهجين علي الثقافات وحسب، بل يشمل حتى الأجناس لإنتاج مجتمعات هجينه لتثبيت الاستيطان وهو ما يعرف بالتناسل مثل : تناسل الهنود والبيض,الأفارقة وسكان أمريكا "**التي تهدف إلي إنشاء سكان محليين متأثرين بأوروبا (التمازج العقلي)، أو حسب مقولة ماكاولي الشهيرة مجموعة من الأشخاص دمها ولونها هندي لكن ذوقها ورأيها وأخلاقها و فكرها بريطاني**"[3].أي إنتاج نماذج بشرية بتفكير أوروبي ففكرة الهجانة مسيسة وضرورية لحالة الإستعمار، وهذا ما ينعكس على النصوص الأدبية وتنتج أنواعا مختلفة من آداب ما بعد الكولونيالية والتي كانت نتيجة تفاعل وصراع الحضارات " **إن التأكيد علي الاختلاف والتنوع في أدب ما بعد الكولونيالية لا يلغي التفاعل,فهو ينكر مقولة صراع الحضارات ومقولة الشرق شرق,والغرب غرب ولن يلتقيا لصالح مقولة أخرى هي الهجنة , فلا وجود لهويات صافية و حتى الثقافة الغربية التي تسيدت مند عصر الأنوار هي هجينة لها مصادرها ومرجعياتها خارج الغرب الأوروبي**"[4]. فالنصوص الأدبية الفردية ليست صافية ومقتصرة علي من ينتمي إليها , وإنما أيضا هجينة بمختلف المرجعيات والموضوعات والأفكار ضمن الثقافة التي تنتمي إليها.

3-2 -ج مفهوم الطبقة Class:

من البديهي العثور علي مفهوم الطبقة أو الطبقية في المجتمعات الكولونيالية ,واهتمام الدراسات ما بعد الكولونيالية بتحليلها لارتباطها الوثيق بالعرق, والحياة الاجتماعية لإحتواءه علي مضامين الهيمنة والتسيد الاقتصادي "**إن اديولوجيا التفوق العرقي ترجمة بسهولة إلي مفاهيم طبقية. حاجج أحد المستعمرين أن تفوق الأعراق البيضاء معناه أن السود ينبغي أن يظلوا إلى**

1- بيل إشكروفت ، الرد بالكتابة ، مرجع سابق ، ص 328.

2- المرجع نفسه ، ص 71.

3- أنيا لوما، في نظرية الاستعمار و ما بعد الاستعمار الأدبية ، مرجع سابق، ص 177.

4- طارق ثابت، هوية الأدب بين الحضور والغياب في الخطاب النقدي العربي ، مرجع سابق ،ص 107.

الأبد عبيدا يقدمون عملا رخيصا "[1].

فنظرية العرق قسمت المجتمع إلي طبقتين ، طبقة الأسياد يمثلها الجنس الأبيض وطبقة العبيد يمثلها السود أو غير الأوروبي، أي حسب لون البشرة . ولا تقف الطبقة عند هذا الحد بل تعمل على "**جمع الأشخاص وفق معايير الوظائف والشروط الاجتماعية**"[2].أي حسب الموقع الذي يشغله الأفراد في المجتمع وطبيعة الأعمال التي يقومون بها، والممارسات اليومية الأكثر اعتيادية.

" **فالطبقة تشير إلي المقولات المعتمدة علي المصادر الاقتصادية للمجموعات المختلفة من الناس في مجتمع بعينه، وإلي التنظيمات الثقافة الاجتماعية التي تنبثق من هذا التقسيم، أي أن لتقسيمات الطبقة الاقتصادية نتائج ثقافية**"[3]. فالخصوصيات الثقافية تتقاطع مع التصنيفات الاقتصادية، لأن ثقافة الطبقات تختلف من انساق وقيم ونماذج السلوكيات، والتي تتأثر بالاختيارات الاقتصادية. لذلك تعتبر حاجة اقتصادية بالنسبة للمستعمرين " **الهيمنة الاقتصادية تضمنت إعادة هيكلة الموارد الاقتصادية والاجتماعية الخاصة بالمجتمعات المستعمرة ، وبالتالي كانت الطبقة عاملا مهما في الكولونيالية**"[4]. وهذا ما تؤكده " **أنيا لومبا** " بقولها : " **في الأوضاع الاستعمارية تكون الدولة ومؤسساتها المتنوعة (كالمؤسسة التعليمية) مهمة علي وجه الخصوص في الحفاظ علي تلك الفروقات الطبقية والإيديولوجية الضرورية لإنشاء الرأسمالية،(...) إن علاقة العرق لا تحددها الفروقات الاقتصادية فحسب,بل إن التباينات الاقتصادية بالأحرى تحافظ عليها إيديولوجيات العرق**"[5]. فالنظام الاجتماعي والاقتصادي في المستعمرات لا يمكن ضبطه بقوانين رسمية، لذلك يتم اللجوء إلى التفوق العرقي للتأكيد علي العرقية في فكر المستغلين.وكما تستخدم الطبقية في زيادة رأس المال بإيجاد طبقة العمال كقوة فاعلة، "**حقيقة إن الطبقة لا تنتقل عبر الثقافات بطريقة بسيطة , حتي عندما يعاد هيكلة تلك الثقافات علي مستوى جذري بموازاة خطوط التراكم الرأسمالي** "[6]. ولذا يتم استخدام المقولات الطبقية التي تسمح بالتوسع الرأسمالي ،واضطهاد الطبقة العاملة ، فبيان أهمية البنيات الاقتصادية

1- أنيا لومبا ، في نظرية الاستعمار وما بعد الاستعمار الأدبية ، مرجع سابق ، ص 134.

2- يانيك هوميل، الطبقات الاجتماعية، تر: جورجيت الحداد، دار الكتاب الجديدة المتحدة ، بيروت، لبنان، فيفري، 2008، ص20.

3- آرثر ايز برجر، النقد الثقافي،مرجع سابق ، ص 88 .

4- بيل إشكروفت و آخرون ، دراسات ما بعد الكولونيالية المفاهيم الرئيسية ، مرجع سابق ، ص 95.

5- أنيا لومبا ، في نظرية الاستعمار وما بعد الاستعمار الأدبية ، مرجع سابق ، ص 135.

6- بيل إشكروفت وآخرون ، دراسات ما بعد الكولونيالية المفاهيم الرئيسية ، مرجع سابق ،ص98.

والإجتماعية للمجتمعات يساهم في تشكيل هذه الفئات. أما علي المستوي الاجتماعي "**فهي أشكال يمكن أن تتخذها التصورات التي نبنيها حول المجتمع,حول التفاوتات الاجتماعية التي نجدها فيه,وتنظيم هذه التفاوتات وبالتصرف,وربما بالعمل علي تغيير الأوضاع .ومن هنا نفهم لماذا قد تكون مثقلة بالإديولوجيا**"[1]. بمعني أن هذه التصورات شديدة التنوع .واستخدامها يسمح بتوجيه الإنسان ضمن مجتمعه, وكيفية التأثير عليه " **فتحليل الطبقة له دور مهم ومركب في تعزيز الصلة بين التمثيل والممارسة في خطاب ما بعد الكولونيالية**"[2]. أي أنهما يعملان علي خلق الظروف المركبة في أي مجتمع وتنتج الطبقة بالموازاة معهما.

3-3 آداب ما بعد الكولونيالية La littérature post-coloniale:

إن الأدب مادة طيعة للتشكيل والشحن بمختلف الأفكار والإيديولوجيات.لدى أعتبر من أهم الوسائل التي سعت القوى الاستعمارية إلى استغلالها في إطار إستراتيجيتها للسيطرة علي العالم لقدرته علي التأثير.

تم الانتباه إلي العلاقة بين الأدب والاستعمار، وإعادة النظر بشكل جدي في هذين المصطلحين.نظرا للدور الحيوي الذي يلعبه في كل من الخطابات الاستعمارية والمعادية للاستعمار,لأنه يتوسط بين ما هو حقيقي وما هو متخيل.فاللغة والإشارات هي المواقع التي تتداخل فيها الإيديولوجيات وتتصارع مع بعضها البعض. والنصوص الأدبية كونها عناقيد معقدة من اللغات والإشارات،فهي مواقع منتجة جدا لمثل هذه التفاعلات الإيديولوجية[3].

وتضيف" أنيا لومبا" :" **إن النصوص الأدبية تنتشر في المجتمع ليس بسبب ميزتها الداخلية فحسب ،بل بأنها تشكل جزء من مؤسسات أخري كالسوق أو النظام التربوي. ومن خلال هذه المؤسسات تلعب دورا هاما في بناء السلطة الثقافية للمستعمرين في كل من المستعمرات والعاصمة. بيد أن النصوص الأدبية لا تعكس ببساطة الإديولوجيات المهيمنة,لكنها تحول التوترات والتعقيدات والفروقات الدقيقة داخل الثقافات الاستعمارية إلي رموز. الأدب (منطقة تماس) مهمة**"[4]. فالخطاب الاستعماري لا ينحصر في النصوص الأدبية بل يتجاوزها

1- بانيك هوميل ، الطبقات الإجتماعية ، مرجع سابق ، ص7.

2- بيل إشكروفت وآخرون ، دراسات ما بعد الكولونيالية مرجع سابق ، مرجع سابق ، ص98.

3- ينظر، آنيا لومبا ، في نظرية الاستعمار وما بعد الاستعمار الأدبية ، مرجع سابق ،ص78.

4- المرجع نفسه ،ص79.

إلي كل أنواع الخطابات، كالصحافة والإعلام والتقارير الحكومية والكتابات السياسية ...الخ هذه المؤسسات تبرز الهيمنة وتجسدها في المجال الفكري والرمزي.

كما تعتبر" **أن الأدب المكتوب من طرفي التقسيم الاستعماري غالبا ما يمتص ويستولي عليه، ويكتب أوجها من الثقافة "الأخرى" ويخلق أنواعا أخري أفكار وهويات أثناء التقدم.وأخيرا فإن الأدب أيضا وسيلة مهمة للاستيلاء علي وسائل الهيمنة للتمثيل والايدولوجيا الاستعمارية أو قلبها أو تحديها**"[1].بمعنى أن الأدب أصبح وسيلة ذو وظيفة استراتيجة مسطرة،تهدف إلي إخضاع الثقافات عبر إنتاج المعارف ومراقبتها "**لقد كانت مؤسسة الأدب في المستعمرة تخضع لسيطرة مباشرة من الطبقة الحاكمة الإمبراطورية التي كانت وحدها تجيز الشكل المقبول,وتسمح بنشر وتوزيع العمل الناتج**"[2].الأدب الذي ينتجه سكان المستعمرات يخضع لرقابة استعمارية مشددة حتى لايمارس تأثيره في نمو الوعي لدى هذه الشعوب والإطاحة بنظامها.

" **أدب ما بعد الكولونيالية شكل من أشكال النقد الثقافي والتحليل النقدي الثقافي ، كما أنه منهج لتحرير مجتمعات بأسرها من شفرات المهيمن التي ترتدي أقنعة،إلا أنه في حقيقة أمره نوع من الاشتباك الجدلي مع عملية إنتاج المفهوم الثقافي التي تتم في إطار الهيمنة**"[3].فهي خطاب نقدي يسعى إلي تخطي الآثار التي خلفها الاستعمار على الشعوب التي عانت منه،وبالخصوص علي الصعيد الثقافي ومواجهة القوى الاستعمارية التي قامت بتعريف وتحديد ماهية الدول المستعمرة وفقا لمنظومتها المعرفية وخدمة أهدافها الاستعمارية.

"**فأدب ما بعد الكولونيالية يشتغل علي قضية الكتابة الرجعية writing back وإعادة القراءة ، وعليه فإن هذا ينصف تأويلات أدبية مشهورة من منظورات استعمارية سابقة على غرار(بحر سارغوس الواسع) الذي يعيد كتابه " جين إير" لشارل وت برونتي ، فالسرد المضاد للاحتلال يعيد تشكيل صياغة السكان المحليين علي أنهم ضحايا وليس بصفتهم أعداء المستعمرين ، وهذا ما يصور المستعمرين بشكل إنساني أوضح ولكنه يهدد بإعفاء المستعمرين من مسؤولياتهم**"[4].والأدب ما بعد كولونيالي هو إعادة قراءة للنصوص الكولونيالية لكشف

1- ينظر، آنيا لومبا ، في نظرية الإستعمار ومابعد الإستعمار الأدبية ، مرجع سابق، ص79.

2-- بيل اشكروفت، الرد بالكتابة ، مرجع سابق ،ص 23.

3- نبيل راغب ، موسوعة النظريات الأدبية ، مرجع سابق ، ص551.

4- موسوعة ويكيبيديا الحرة postcolonialism / www.wikipedia.com

الاديولوجيا الاستعمارية المقصودة والغير مقصودة، ولفضح حجم التعارض بين الدعاوى الحضارية للاستعمار ومبطناته الاستيطانية ."**فهو ليس هجوما مباشرا و فجا علي الأعمال الكولونيالية، بل إبداع يقف موقف الند منها بسائلها ويراجعها حتى يحطم هالة الذات المصونة التي لا تمس، والتي تدثرت بها عبر العصور. إن إعادة إنتاج الشخصيات وصياغة السرد وتشكيل السياق, بل وفحص الجنس الأدبي المعتمد في ضوء جديد لهو بمثابة وسيلة لمسائلة ومراجعة الإرث الثقافي للإمبريالية بصفة عامة**"[1] .فقد تأسست الدراسات ما بعد الكولونيالية على دراسة الأدب بناءا علي محتواه الثقافي كون هذه النصوص لا تنطوي علي أبعاد سلبية فقط تتمثل في خلخلة السلطة السياسية والثقافية ، بل حتى خطابات النسوية والخطابات البنيوية التي تقوم على أساس عرقي لأنها تعتمد علي صيغ أدبية ومناهج فكرية متشابهة.

" **فالإتصال الإستعماري لا ينعكس فقط في اللغة أو الصور البيانية للنصوص الأدبية.فهو ليس ستارة خلفية فحسب أو سياقا تمثل أمامه المسرحيات الإنسانية، بل شكلا مركزا لما يجب أن تقوله هذه النصوص عن الهوية والعلاقات والثقافة**"[2]. حيث يصبح النص كحقل معرفي يهتم بالكولونيالية من عدة جوانب والاشتغال بقضايا العرق والطبقة والهوية والجنوسة والتبعية، وتشكيل الإمبراطوريات ليتجاوز بهذا بالشكل وظيفته الجمالية "**وما يميز باكورة النصوص ما بعد الكولونيالية أن إمكانية التقويض في مواضيعها لا يمكن أن تتحقق بالكامل وعلي الرغم من أن هذه النصوص تتسم بالقوة مثل وحشية نظام الإدانة أو الفاعلية التاريخية للثقافات الأهلية التي استؤصلت من جذورها (...) فقد كانت ممنوعة من استكشاف كامل إمكاناتها المعادية للإمبراطورية** "[3].

أما عن المجال الجغرافي الذي يشغله الأدب ما بعد كولونيالي " **تندرج تحت مصطلح ما بعد الكولونيالية آداب كل من البلدان الإفريقية واستراليا و بنغلاديش وكندا وبلدان منطقة الكاريبي والهند وماليزيا ومالطا ونيوزيلندا والباكستان وسنغافورة وبلدان جزر جنوب المحيط الهادي وسيري لانكا**"[4]. الدول التي خضت للاستعمار البريطاني والاستعمار الفرنسي،والتي كتبت آدابا فرانكفونيا أو أنجلوفونيا حيث كانت اللغة الاستعمارية هي الوسيلة المتاحة للاستخدام . ومن

1- نبيل راغب ، موسوعة النظريات الأدبية ، المرجع السابق ، ص 555.

2- آنيا لومبا ، في نظرية الاستعمار وما بعد الاستعمار الأدبية ، مرجع سابق ، ص 81.

3- بيل أشكروفت ، الرد بالكتابة ، مرجع سابق ،ص 22-23.

4- المرجع نفسه ، ص 16.

هنا يطرح مشال فوكو و إدوارد سعيد " **إستحضار طرق معينة للتفكير حول اللغة وحول الحقيقة وحول السلطة وحول العلاقات المتبادلة بين الثلاثة. أما الحقيقة فهي ما يمكن اعتباره صحيحا داخل نسق من القواعد لخطاب بعينه،والسلطة التي تقوم بإلحاق الحقيقة وتحديدها وإثباتها وإنتاج الحقيقة هي وظيفة القوة. ولا يمكننا ممارسة السلطة إلا من خلال إنتاج الحقيقة** "[1].

فالمعرفة تنتج بواسطة اللغة وعن طريقها يتم إيصال هذه المعرفة،غير أن اللغة لا تنحصر فيما تبلغه وأنها يمكن أن تجتازه فتصبح في خدمة السلطة ،فلغة السلطة قاهرة للمعرفة إذ تشكلها وتوزعها من خلال الخطاب وخصوصا في الخطابات ذات المعرفة الجاهزة والمدروسة مثل التي تنتجها المؤسسات الاستعمارية .

ويعرف "**قاموس أكسفورد**" للعلوم الاجتماعية خطاب ما بعد الكولونيالية :

" **نشأ خطاب ما بعد الكولونيالية في أعمال جماعة دراسات التابع القائمة على التاريخ الهندي, متأثرين بأعمال الماركسية الإنجليزية لتدوين التاريخ ،وكانوا مهتمين بالتعبير عن المستعمرين (الذين وقع عليهم الاستعمار)أكثر من تبني وجهة نظر المستعمر(الذي قام بالاستعمار) وسلطتهم**"[2]. فالهدف من هذا الخطاب هو التطلع إلي الفئة المهشمة وإيصال صوت المضطهدين في خطاب هيمن عليه المستعمِر لفترات طويلة ،والتركيز علي تداعيات الاستعمار علي الثقافة والمجتمع بعد الاستقلال.

" **ويركز خطاب ما بعد الكولونيالية على نضال من أجل السلطة التي تركز في السلطة،التي ترتكز في السيطرة علي اللغة الميتروبوليانية ويجري استثمارها السلطة في اللغة لأنها توفر شروط تشكيل الحقيقة**"[3]. حيث كانت السلطة تتمركز في الإنتماء للدولة الأم (المستعمرة) حتى في اللغة. إذ يسعى الخطاب ما بعد الكولونيالي إلي تفكيك مركز الثقافة الذي يدور حول لغة هذه الدول الأم (بريطانيا وفرنسا)، والكتابة بلغة المركز الإمبريالي وتوظيفها لدى جماعات مختلفة من عالم ما بعد الكولونيالية.

1- بيل إشكروفت وآخرون ، الرد بالكتابة ،مرجع سابق ،ص 275.

2- رامي أبو شهاب، الرسيس والمخاتلة، مرجع سابق ، ص 49-50.

3- بيل إشكروفت و آخرون ، الرد بالكتابة ، المرجع السابق ، ص 276.

الفصل الثاني

ما بعد

الكولونيالية

بوصفها إستراتيجية

قراءة

إن نظرية ما بعد الكولونيالية نشأت من أجل تفكيك بنية فكرية ثقافية تعمل على إعادة بنائها وصياغتها من جديد،وذلك من أجل إعادة موضعة التمركز وبناء الثقافة في ظل وجود اختلالات قائمة بين الشرق والغرب. وحسب النظرية الكولونيالية فإن هذه الإعادة تحتاج الى ملئ إنساني وثقافي عبر الاستيطان، وبإتباع استراتيجية شكلت جزءا كبيرا من الدراسات ما بعد الكولونيالية. مثل التقليل من نشأت السكان الأصلين ونفي أبعادهم الحضارية والثقافية والإنسانية، والتميز العنصري والتفوق العرقي وغيرها، ولهذا كان من الضروري فهم تلك العمليات وتحديد الإشكاليات التي صاحبت ممارسة المستعمر.

1- الهوية :

1- 1- مفهوم الهوية identité :

من الصعب وضع تعريف محدد لمصطلح الهوية , لتناولها عدة جوانب ستداخله يصعب الفصل بينها فتحديد مفهوم "الهوية" بناءا على دلالته اللغوية ،والسسيولوجية والفلسفة ،وهي من "**أصل لاتيني يعني الشيء نفسه أو الشيء الذي ما هو عليه الشيء له الطبيعة نفسها والتي للشيء الأخر، كما يعني هذا المصطلح في اللغة الفرنسية مجموع المواصفات التي تجعل من الشخص ما هو عينه الشخص معروف أو متعين**"[1]. والهوية في اللغة العربية تعود إلى الجدر الاشتقاقي "هو"،وقد وردة كلمة الهوية في قاموس "**المعجم الوسيط للغة العربية المعاصرة: "الهوية (في الفلسفة) حقيقة الشيء أو الشخص الذي نميزه عن غيره ،والهوية بطاقة ثبت اسم الشخص و جنسيته و مولده وعمله وتسمى البطاقة الشخصية أيضا** "[2]. بمفهومها السطحي هي جل المعلومات الخاصة بالفرد كما هي مبينة في حالته المدنية كالاسم والكنية وتاريخ الميلاد وجنسيته الأصلية وطبيعة عمله. فهذه العناصر تثبت وجود الشخص وامتلاكه للهوية وبدونها يصبح مجهولا ،إذ تحدد من أنت وما هي حقيقتك. حيث يقول "**جون جوزيف John Joseph** " "**إن هويتك لكل بساطة هي ماهيتك وإذا سالك شخص ما من أنت؟ سيتنظر منك أن تذكر اسمك ردا على سؤاله** "[3]. فالاسم هوية وحقيقة وجود الفرد.

---

1 – عفيف البويني ، الهوية وقضاياها في الوعي العربي المعاصر ،ص 23.

2 – مجمع اللغة العربية المعاصرة ، المعجم الوسيط ، مكتبة الشروق الدولية ،ط4، 2004.م1،ص 2372.

3– جون جوزيف ، اللغة والهوية ، تر: عبد النور خرافي،عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت،ع 342، فيفري 1978 .

"**لقد فرضت كلمة الهوية نفسها كمصطلح فلسفي يدل على ما به يكون الشيء نفسه، وهذا يفيد أن معنى الهوية في الاصطلاح الفلسفي العربي ليدل على ما به الشيء هو بوصفه وجودا منفردا متميزا عين غيره** "[1]. فالهوية من المصطلحات المتصلة بالفلسفة، من المنظور الفلسفي مرتبطة بالذاتية والخصوصية. فهي الوعي بالذات وما يكون به الشيء هو بذاته متمايزا عن غيره عبر المظاهر المختلفة .

أما "جان فرانسو ماركيه Jean-François Marquet " فيعرفها بقوله "**ذات الكائن من جهة ما هو هو، أو من جهة ما يتفرد به في الوجود فيتميز عن غيره**"[2]. فهي بهذا جملة الصفات المميزة للفرد عن غيره وتجعله مجسدا لحقيقته كما هي. نفس التوجه بذهب إليه " **سايمون ديورينغ** " **فهي من وجهة نظر تعرف من يكون شخص ما من حيث السمة ، التي قد تكون مثلا سمة فزيولوجية للجسم إلى المعتقد وسلالة أو تفضيل ثقافي**"[3]. فهذه السمة محددة للشخص قد تكون خاصة جسدية كلون البشرة ولون العيون أو اعتناقه لديانته أو انتماء ثقافى أو سلالة بشرية تمكن من التعرف عليه .

وفي التراث العربي تعريفات كثيرة لمصطلح الهوية ويعتبر من المصطلحات التراثية القديمة حيث جاء في كتاب "التعريفات للجرجاني"."**الهوية الحقيقة المطلقة المشتملة على الحقائق اشتمال النواة الشجرة في الغيب المطلق**"[4] فحسب التعريف الجرجاني فهي لب الشيء وجوهره.

ويعرفها "**محمد عمارة**" "**إن الهوية الشيء ثوابته التي لا تجدد ولا تتغير ولا تتجلى وتفصح عن ذاتها دون التخلي عن مكانتها لنقيضها طالما بقيت الذات عن قيد الحياة ، فهي كالبصمة بالنسبة للإنسان بتميز بها عن غيرها وتجدد فاعلتها ويتجلى وجهها كلما من فوقها طوارئ الطمس ، والحجب دون أن تجلى مكانها ومكانتها لغيرها من البصمات**"[5].فالهوية حسب محمد عمارة فهي شفرة خاصة يمكن للفرد من خلالها يعرف عن نفسه ويتعرف عليه الآخرون بواسطتها .

1- عفيف البوبني ، الهوية وقضاياها في الوعي العربي المعاصر، ص 158.

2- جان فرانسوا ماركيه، مرايا الهوية الأدب المسكون بالفلسفة، تر: كميل داغر، مؤسسة الفكر العربي ،بيروت،ط1 ، سبتمبر، 2005، ص 434.

3- سايمون ديورينغ ،الدراسات الثقافية ، مقدمة نقدية ، مرجع سابق ، ص 239.

4- الشريف علي الجرجاني،في التعريفات ، تر: محمد صديق منشاوي ، دار الفضيلة ،القاهرة ، مصر ،ص 2170.

5- محمد عمارة ،مخاطر العولمة علي الهوية الثقافية،نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، ط 1، فيفري 1999، ص6.

أما "**حسين حنفي**" في تعرفيه للهوية "**على الرغم من أنها موضوعي ميتافيزيقي فإنها مشكلة نفسية وتجربة شعورية ،فالإنسان يتطابق مع نفسه أو ينحرف عنها**"[1]. فالتجربة الشعورية التي يعيشه الإنسان مع نفسه تنقسم إلى قسمين : هويته الحقيقية التى تحقق ذاته وتثبت وجوده إذا شعر بها شرط أن تتطابق الشعور مع النفس المحفزة له ، إما إذا انحرف عنها ومال إلى غير ذاته يصبح اغترابا وعدم قدرة الشخص على التعرف على هويته.

وهناك من التعريفات ما يجمع بين الاثنين فالهوية من صفات نفسية وجسدية ، وكل ما يدور بالشخص يستطيع من خلاله أن يقدم هويته " **مجموعة المميزات الجسمية والنفسية والمعنوية والقضائية التي يستطيع الفرد من خلالها أن يعرف نفسه، وأن يقدم نفسه وأن يتعرف الناس عليه،أو التي يستطيع من خلالها يشعر الفرد بأنه موجود كإنسان له جملة من الأدوار والوظائف التي من خلالها يشعر بأنه مقبول، ومعترف كما هو من قبل الآخرين أو من طرف جماعته أو الثقافة التى ينتمي إليها**"[2]. فمجمل السمات التى تميز الفرد عن غيره سواء كانت جسدية محددة لبنيته الفيزيولوجية أو نفسية أو شعورية بالإضافة إلى الحياة الاجتماعية بمختلف جوانبها تشكل هوية تحظى بالقبول والاعتراف.

فالهوية بهذا المعنى"**منظومة متكاملة من المعطيات المادية والنفسية والمعنوية والاجتماعية تنطوي على نسق من عمليات التكامل المعرفي ،تتميز بوحدتها التي تجسد الروح الداخلية التي تنطوي على خاصية الإحساس بالهوية والشعور بها ، فالهوية هي وحدة المشاعر الداخلية التى تتمثل في وحدة العناصر المادية والتمايز و الديمومة والجهد المركزي، و هذا يعني أن الهوية هي وحدة العناصر المادية و النفسية المتكاملة التى تجعل الشخص يتمايز عمن سواه ويشعر بوحدته الذاتية**"[3].فالهوية نتيجة إتحاد عوامل داخلية وخارجية ينصهر فيها الفرد وينسجم مع ذاته ويشعر بوجودها، بهذا يكون الإنسان مطابقا لذاته ومتميزا عن غيره ومعترف به.فجميع سلوكات الإنسان تنطلق بالضرورة من سياق إجتماعي تأخذ بذلك الهوية دلالة ومعنى، وتمنح فاعلها مكانا إجتماعيا بفضل التجربة المعاشة ضمن وسط إجتماعي يحدد هوية إجتماعية لها دورا محددا.

1- حسين حنفي ، الهوية ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، 2012، ص 10.

2- شرقي رحيمة ، الهوية الثقافية الجزائرية وتحديات العولمة ، مجلة العلوم الإنسانية ،ع 11، جوان 2013، ص 193.

3-– أليكس ميشكللي ، الهوية ، تر: علي وطفة ، دار الوسيم للخدمات الطباعية ، دمشق ، ط1 ، 1993 ، ص 129.

1 – 2 الهوية الاجتماعيةidentité sociale:

الكائن البشري ذو طبيعة اجتماعية ولا يمكن عزله عن محيطه فالإنسان منذ ولادته ينشأ في ثقافات فئوية معينة مع الآخرين ، فالحياة بطبيعتها تفاعلية ذات أنساق مختلفة فيما بينها. وهذا ما يولد علاقة جدلية مع الآخرين بفعل الاحتكاك والانفتاح كذلك " **الهوية علاقة جدلية بين الأنا و الأخر مع تزايد الاحتكاكات الثقافية بين الشعوب والأفراد**"[1].فالهوية كما تتجسد فيك تتجسد في غيرك ، فهؤلاء الأفراد أو الهويات التي تنتمي إلى مجموعات تشكل هوية اجتماعية،"**ومن هنا تأتي ضرورة تشجيع بروز هوية تجمع كل الانتماءات وفي داخلها يكون الإنتماء إلى الجماعة الإنسانية، وهو الإنتماء الرئيسي لكل البشر لكن دون أن يؤدي إلى إقصاء الانتماءات المتعددة الخاصة بكل شعب وفرد.**"[2] فالانتماء إلى مجموعات مختلفة يعزز ويطور العلاقة بين مختلف شرائح المجتمع والتي يمثل كل واحد منها نظاما اجتماعيا وثقافيا مختلف يشكل هوية اجتماعية.

"**فهي إتحاد مجموعة من الجوانب التي تشكل ذاتنا وتشمل العمر،العرق أو القبلية والسلالة والجنس والجنسية والحالة الاقتصادية الاجتماعية التي تجعل منا جزء من طوائف اجتماعية متعددة**"[3].فهي نظام بشري يشير إلى التمثيل الشخصي للعلاقات تعكس درجة التداخل المدرك وجودها بين الجماعات البشرية،والتي تشترك في عدة عناصر بمعنى أنها عدة انتماءات كالسلالة والعرق و الفئات العمرية،"**إذا كان لكل فرد هوية خاصة به فإن تلك الهويات تكتسب طابعها عبر الانتماءات إلى جماعة الاجتماعية،إن العناصر الفردية للهوية تؤكد على الاختلافات بينما العناصر الجمعية تركز على التشابهات مع الاثنين يرتبطان بإحكام**"[4].

أما" **الكيس ميكشيللي Alex Meshkell** " فيقول:" **تشير الهوية الاجتماعية إلي مجموعة المعاير التي تسمح بتعريف فرد أو جماعة ما على نحو اجتماعي ، وهي بالتالي المعايير التي تسمح للفرد باستحواذ وضعيته الخاصة في إطار مجتمعه، وبعبارة أخرى تعني الهوية الاجتماعية السمات والخصائص التي تضفي على الفرد من قبل عدد من الأفراد والأخرى في المجتمع، وهي هوية اجتماعية معروفة من قبل ممثلها الذي يوافق ويشارك في الحياة**

1- محمد سعدي، الهوية من الوحدة إلى التعدد،آفاق المستقبل ،ع 7، سبتمبر/ أكتوبر 2010، ص83.

2- محمد سعدي ، الهوية من الوحدة إلى التعدد، مرجع سابق ، ص 83.

3- كيلي م هانوم، الهوية الإجتماعية ،تر: خالد بن عبد العوض ، العالبيكان للنشر ، السعودية ، ط 1، 2009، ص11.

4- هرلمبس و هولبورن ،سوسيولوجيا الثقافة والهوية ،تر:حاتم حميد محسن ، دار كيوان لطباعة والنشر ،دمشق ،سوريا، ط1، 2010، ص 105.

الاجتماعية عبر انتماءاته الاجتماعية المتنوعة"[1]. فالهوية الاجتماعية تظهر من خلال العلاقة مع الجماعة والتفاعل مع الجماعات الأخرى وشعور الأفراد بعضويتهم فيها، وإدراك أوجه الاختلاف والتشابه بينهم وبين أفراد آخرين ، وبذلك تنشأ من تقاطع عناصر فردية وعناصر فردية أخرى فهي تتشكل عبر العلاقات مع الآخرين " **فالهوية المشتركة هي بالدرجة الأولى صيغة مشاركة انفعالية في إطار كل جماعة وهي الدعامة الدائمة لأشكال الهوية وصيغها المختلفة ،فهي تتشكل من منطلق الشعور بالهوية وخاصة مشاعر الإنتماء بالقيمة والثقة"**[2]. فالذات مرتبطة بالهوية الاجتماعية وحاجة الأفراد إلى تقيمها وتقديرها من خلال الفئات الاجتماعية .

1-3 مفهوم الهوية الثقافية identité culturelle :

إن الهوية كما سبق الذكر هي ما يتميز به الشخص ويثبت وجوده ضمن محيطه الاجتماعي والثقافي ، وهذه الأخيرة محور مشترك بين جميع الأفراد في مختلف نشاطاتهم مما يجعلهم ينتمون إلى جماعة واحدة بسبب هذه الثقافة المشتركة وبذلك تصبح هذه الأخيرة عنصرا أساسيا لتشكيل هوية لدى هؤلاء الأفراد " **ثمة علاقة وثيقة بين الهوية والثقافة بحيث يتعذر الفصل بينهما إذن أن ما من هوية إلا وتختزل ثقافة،فلا هوية بدون منظور ثقافي،لا تستند إلى خلفية ثقافية، و الثقافة في عمقها وجوهرها هوية قائمة الذات"**[3]. فالثقافة هي الوسيط المشترك والضروري لتوحيد أعضاء المجتمع الذين ينتمون إلى أعراق مختلفة وطبقات متباينة،و اتجاهات ومذاهب دينية وسياسية متعددة ، فالثقافة القومية تجعلهم كيان واحد وهذا ما يؤكده "**ستيوارت هول Stuart hall**":" **إن الثقافة القومية تسعى لتوحيدهم في هوية ثقافية واحدة وتمثليهم جميعا بصفتهم ينتمون إلى العائلة القومية العظيمة نفسها** "[4].فلكل أمة خصائص ثقافية مميزة لها وتأكد وجودها "**فالهوية معناها التفرد ، والهوية الثقافية هي التفرد الثقافي لكل ما تتضمنه الثقافة من عادات وتقاليد وأنماط سلوك وميل وقيم ونظرة إلى الكون والحياة"**[5]، ففي كل ثقافة توجد الذاكرة الجماعية للمجموعة التي تحمل هذه الثقافة.

1- اليكس ميكشيللي،الهوية ، مرجع سابق ،ص 111-112.

2- المرجع نفسه ،ص101.

3- عبد العزيز عثمان التويجري، العالم الإسلامي في عصر العولمة، دار الشروق ، القاهرة ، 2004، ص 57.

4- ستيوارت هول ،حول الهوية الثقافية ، تر: بول طبر، مجلة إضافات ، ع 2 ، 2008، ص 153.

5- جلال أمين ، العولمة ، دار الشروق ، القاهرة ، مصر ، ط1، 2009. ص 50.

" **المقصود بالهوية الثقافية تلك المبادئ الأصلية السامية و الذاتية النابعة من الأفراد أو الشعوب،وتلك ركائز الإنسان التي تمثل كيانه الشخصي والروحي والمادي بتفاعل صورتي هذا الكيان لإثبات هوية أو شخصية الفرد أو المجتمع أو الشعوب ، بحيث يحس ويشعر كل فرد بانتماءه الأصلي لمجتمع ما يخصه ويميزه عن باقي المجتمعات الأخرى**"[1].إن العلاقة بين الهوية والثقافة هي علاقة الذات بالإنتاج الثقافي، ومما لاشك فيه أن أي إنتاج ثقافي لا يتم في غياب ذات مفكرة لذا يتعذر الفصل بينهما أما **التويجري** فيعرفها بقوله "**إن الهوية الثقافية والحضارية لأمة من الأمم هي القدر الثابت والجوهري والمشترك من السمات والقسمات العامة التي تميز حضارة هذه الأمة عن غيرها من الحضارات**"[2]. إنها الثوابت الثقافية والبصمة المميزة لأي مجتمع عن غيره من المجتمعات، والإحساس بها والمشاركة فيها بحيث تظهر فيها أنفسنا في ذات كلية "**إن الهوية الثقافية كيان بصير يتطور ، وليس معطى جاهز ونهائي ، فهي تسير وتتطور إما في اتجاه الانكماش أو في اتجاه الانتشار،وهي تغتني بتجارب أهلها ومعاناتهم ،وانتصاراتهم وتطلعاتهم ،وأيضا باحتكاكها سلبا وإيجابا مع الهويات الثقافية الأخرى**"[3]. فالهوية الثقافية قابلة للتغيير كونها تنتقل من جيل إلى أخر حسب الظروف الخاصة لكل مرحلة ، ويمكن للأجيال أن تضيف إليها قيما ومفاهيم جديدة

1-4 عناصر الهوية الثقافيةÉléments d'identité culturelle :

المقصود بعناصر الهوية الثقافية هي العوامل المشكلة لها وتشمل جوانب اجتماعية واقتصادية وحضارية لأعضاء الجماعة التي ينتمي إليها الأفراد الذين يشعرون بها "**تتجلى عناصر الهوية الثقافية بالنسبة للشعوب والأفراد وان كانت تتمثل في الغالب ثلاثة عناصر متمثلة في عنصر العقيدة واللغة والتراث الثقافي**"[4]. فالدين هو أساس حياة الأفراد المجتمعات والأفراد، ويحدد معتقداتهم. أما اللغة فهي اللسان الناطق للثقافة، وتمارس الهوية من خلالها وإثبات وتأكيد وجودها، أما التراث الثقافي فهو ما ينتقل من عادات وتقاليد وأعراف وأدب وفنون مادية ومعنوية وطرق التفكير والتعامل معها، تنتظم وفق الثقافة حيث تشكل صميم هوية المجتمعات التي من خلالها،فهي واجهة الهوية الثقافية المعبر عنها من خلال هذه الموروثات .

1- محمد زغو،أثر العولمة على الهوية الثقافية للأفراد والشعوب،الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية،ع4 2010،ص 94.

2 – التويجري العالم الإسلامي في عصر العولمة ،مرجع سابق ،ص 64-47.

3- شهيب عادل، الثقافة والهوية ، إشكالية المفاهيم والعلاقة، موقع انتربيوس ،18 أفريل 2016.

4 - محمد زغو، أثر العولمة علي الهوية الثقافية ، مرجع سابق ، ص 95.

فالهوية هي حصيلة تفاعل هذه العناصر كلها ،فقد تزيد نسبة عوامل أو تنقص لكنها تتضافر فيما بينها لتطبع الإنسان الذي تتوفر فيه ، ويعتبر الدين الإسلامي أهم عنصر في تشكيل الهوية الثقافية العربية ، يطبع الثقافة العربية بطابعها الخاص،و الإسلام بالنسبة للغالبية العظمى يمثل لوحده هوية " **إن الإسلام منذ أن تدينت به أغلبية هذه الأمة قد أصبح هو الهوية الممثلة لأصالة هذه الأمة (...) .إن ثقافتنا إسلامية الهوية وأن معيار الدخول والخروج في ميدان ثقافتنا والقبول والرفض فيها هو المعيار الإسلامي**"[1].فالإسلام يجمع جميع أفراد هذه الأمة تحت غطاء واحد على اختلاف مذاهبهم ويوحد كل التيارات الفكرية والسياسية، فهو صيغة جامعة للأمة العربية .خلاف ذلك فهو يضم جميع الأجناس البشرية، وأتباع الديانات الأخرى وهذا ما يجعل الهوية العربية والإسلامية متماسكة إلى اليوم." **فلا يمكن تصور وجود للهوية الثقافية العربية والإسلامية ،وأداة المسلمين لمقاومة الإغتراب الثقافي ،وبالتالي أي هجوم على الإسلام هو بمثابة محاولة استيلاب للهوية الثقافية والحضارية للأمة العربية**"[2]. فلا يمكن تصور الهوية العربية من غير الدين الإسلامي ، فالإسلام منذ مجيئه كان له الأثر العميق والشامل على هويتنا الثقافية لذلك يعتبر مكونا أساسيا لها.

ومن بين أهم مكونات الأساسية للهوية الثقافية اللغة، فاللغة ليست مجرد كلمات ورموز فهي وعاء يحتوي مكونات عقلية وجدانية ومعتقدات أي مجتمع ، وإذا كانت اللغة جزء لا يتجزأ من الهوية الفردية ،فهي تأكيد لوجود الهوية لأنها تتغلغل كذلك في الكيان الاجتماعي والثقافي لأي أمة.هي بالنسبة لهذه الأخيرة الوسيلة المضمونة للإطلاع المباشر على التراث الثقافي لذلك اعتبرتها منظمة اليونسكو ذات أهمية بالغة في حياة الأفراد والمجتمعات "**إن اللغات هي المقومات الجوهرية لهوية الأفراد والجماعات وعنصر أساسي في تعايشهم السلمي (...) تعدد اللغات هو الوسيلة الوحيدة التي تضمن لجميع اللغات متسع لها في عالمنا الذي تسوده العولمة**"[3]. فاللغة العربية ترفع من قيمة المجتمع العربي ومن الركائز الأساسية للهوية الثقافية، تمنحها امتيازا خصوصا لارتباطها بالقرآن الكريم.

1- محمد عمارة ، مخاطر العولمة علي الهوية الإسلامية ، مرجع سابق ، ص 7.

2- حمدي حسن عبد الحميد المحروقي ، دور التربية في مواجهة تداعيات العولمة على الهوية الثقافية ، مجلة دراسات في التعليم الجامعي ،ع7، أكتوبر 2004. ص 168.

3- كوسترو ماسورا ، رسالة المدير العام لليونسكو بمناسبة الاحتفال بالسنة الدولية للغات ،2008.
www.un.org/arabic/events/iyl/unesco

فهي تحقق التواصل بين أفراد المجتمع لذلك نجد اللغة ترتبط ارتباطا وثيقا بالهوية الثقافية "**هوية كل مجتمع تتأسس على لغته، واللغة هي أم هي الرموز الثقافية المشكلة لهوية الإنسان، والهوية في صميم ما تعنيه اللغة، وفي آلية عملها ،وفي كيفية تعلمها**"[1]. فاللغة على هذا الأساس مطلقا هي الهوية، والعلاقة بينهما هي علاقة جدلية وتفاعلية، فاللغة ليست مجرد أداة لتعبير ووسيلة تواصل ،بل هي مؤلف رئيسي من مؤلفات لهوية لكل فرد و وطن وأمة ، فهي الناطق الرسمي بلسان الهوية ووسيلة لإدراك العالم تصنيف المجتمعات.

وفي " **الفضاء العربي، العربية هي طبقات الهوية وليس الدين أو الدولة ، أنا هنا أتحدث عن الهوية من جهة الترسيخ و الثبوت، لأن من جهة الأهمية المطلقة والنسبية ،حيث يسعنا ترتيب طبقات الهوية، اللبناني المسيحي مثلا – على سبيل التطبيق – وفق الآتي (هو عربي أولا، ومسيحي ثانيا، ولبناني ثالثا) ، لأن هذا الإنسان اللبناني لا يستطيع ولو أراد أن يكون غير عربي ، حتى ولو انغمس في مجتمعات غير عربية لمدة طويلة ،فهويته العربية، لا انفكاك منها بأي حال من الأحوال فهو عربي في نفسه،وعربي في نفس الأخر أيضا**"[2]. فاللغة هي واجهة الهوية والتي من خلالها نتعرف إلى هوية الفرد.

كما أن التاريخ من أهم مكونات الهوية الثقافية التاريخ، فهو ملازم للحياة البشرية، وتعطى له الأولوية له في تشكيل أي أمة.فلا يمكن تصور أي أمة من دون تاريخ يحفظ التحولات والتغيرات الثقافية والفكرية والنزعات المحلية والإتجهات السياسية وكل ما يتعلق بالمجتمعات، فهو الوعاء الحافظ لها من الضياع " **وفي مكونات هويتنا الثقافية يأتي التاريخ الذي تميز هو الأخر في حضارتنا الإسلامية بأنه تاريخ الأمة كما هو تاريخ و وعاء الذكريات الحافظ لخلود الأمة عبر الزمان والمكان**"[3] .التاريخ بما فيه من أمجاد وبطولات من حق جميع الشعوب العربية ، ويمثل بالنسبة لها مرجعا مهما تتصل بها اتصالا مباشرا " **فهوية الأمة هي هوية تاريخية والتاريخ هو الذي يشكلها** "[4]. فلا يمكن لأي امة أن تشعر بوجودها إلا عن طريق تاريخها،فالأمة العربية لا يمكن أن تحذف من ذاكرتها هذا التاريخ الطويل فهو يمثل مرجعية تاريخية تستمد منها الكثير من مقوماتها وتبحث عن هويتها من خلاله.

---

1 – عبد الله البريدي، اللغة هوية ناطقة، المجلة العربية ، الرياض ، السعودية، ع 197، ص 23.

2– المرجع نفسه، ص 24.

3– محمد عمارة ، مخاطر العولمة على الهوية الإسلامية ، مرجع سابق ، ص 9.

4– نديم البيطار حدود الهوية القومية ، التيار القومي العربي ، ص 7.

2 – الهيمنة

2-1 مفهوم الهيمنة domination :

تعرف الهيمنة في مفهومها العام بأنها السيطرة على الشيء، وإذا تم تحليلها كسلوك في علم النفس نجدها "**حالة نفسية أو فيزيولوجية لها الأسبقية على غيرها من الحالات و الخصائص، كما أنها نزعة إلى التحكم في الآخرين**"[1]. بعمنى أنها السيطرة والرغبة في السيادة المتأصلة في النفس البشرية .

ويرجع أصل المصطلح إلى "**غرامشي Antonio Gramsci**" حسب بيل إشكروفت في كتابه المفاهيم الرئيسية في الدراسات ما بعد الكولونيالية "**الهيمنة في الأصل يشير إلى تسلط دولة بداخل إتحاد كنفدرالي ويفهم الآن بشكل عام بأنه يعني السيطرة بالقبول ، وهذا المعنى الأوسع تم استحداثه وشيوعه في ثلاثينيات القرن العشرين على يد الإيطالي الماركسي أنطونيو غرامشي الذي بحث في سبب النجاح الكبير لطبقة الحاكمة في تعزيز مصالحها في المجتمع،الهيمنة هي في الأساس قوة الطبقة الحاكمة في تعزيز مصالحها في المجتمع**"[2].فالهيمنة التي عرفها غرامشي هي سلطة سياسية دون مقاومة أو رفض ،"**وهو الشائع في الخطاب السياسي والثقافي المتداول يشير إلى التسلط أو الرقابة الصارمة التي يفرضها فرد أو شعب أو مؤسسة أو غير ذلك على ما عداه لتحقيق مصلحة للمتسلط أو الرقيب**"[3].الهيمنة التي تمارسها الطبقة الحاكمة لا تنبني على المال والسلطة فحسب ، بل على عامل القبول الذي تكونه ثقافة الطبقة الحاكمة في أذهان الناس فيما يتعلق بمصالحها."**تكتسب هذه الهيمنة من خلال عمليات طويلة تستغرق سنوات عديدة وتتطلب قدرا هائلا من التضحيات من جانب الطبقة العاملة .تصبح صاحبة هيمنة مضادة إلا من خلال كسب القطاعات الرئيسية من المثقفين والطبقات التي يمثلونها بسبب الدور الحاسم الذي يلعبونه في تشغيل أجهزة السيطرة الإيديولوجية**"[4]. إنها إستراتيجية مدروسة تتم بواسطة عنصرين أساسيين : السيطرة على المؤسسات الفاعلة (الاقتصادية و التعليمية) والقطاعات الحيوية كالإعلام أولا،وعلى النخبة من هذه

1– جوردنماريشان، موسوعة علم الإجتماع ، تر محمد الجوهري وآخرون ، المجلس الأعلى للثقافة ،م1، ط2،2007،ص718.

2– بيل إشكروفت وآخرون ، دراسات مابعد الكولونيالية المفتهيم الرئيسية ، مرجع سابق ،ص197.

3– ميجان الرويلي وسعد البازغي ، دليل الناقد الأدبي ، مرجع سابق، ص 345.

4– كريس هارمان ، جرامشي ضد الإصلاحية ، مركز الدراسات الإشتراكية ، ص 30.

المؤسسات باعتبارهم يملكون آليات التحكم في أجهزتها فإذا استطاعت الطبقة الحاكمة إحكام السيطرة على هذين العنصرين هيمنت على شعب بأكمله.

" **فالسيطرة لا تفرض بالقوة، ولا حتى بالضرورة بالإقناع العملي، ولكن بسيطرة أكثر براعة شمولية على الاقتصاد وعلى أجهزة الدولة مثل التعليم والإعلام عن طريقها يتم تقديم مصلحة الطبقة الحاكمة كمصلحة ويؤخذ هذا من المسلمات**"[1].فالفكرة الأساسية للهيمنة تتمثل في آليات السيطرة على الأفكار والتحكم فيها وفي تخلي الطبقة العاملة عن مصالحها لصالح الدولة "**فالنضال من أجل الهيمنة يمكن وحده أن يحل مسألة سلطة الدولة**"[2].

" **وقد شاع المفهوم في العديد من التيارات والمقاربات مثل النقد الماركسي والنقد الثقافي والخطاب الاستعماري وما بعد الاستعماري والبطريكية والنقد النسوي ليشير في دلالته الأولية إلى علاقة الهيمنة أو التسلط بين الدول أو الطبقات الاجتماعية**"[3]. هذه الحقول المعرفية تناولت الهيمنة من جانبين ،العلاقة بين دولة ودولة أخرى أقوى منها. وهنا يصبح المصطلح يعبر عن "**النفوذ السياسي الذي تمارسه دولة قوية على أخرى بقصد تحجيمها على الساحة الدولية والسيطرة الفعلية (غير الرسمية) على شؤونها، وسلطاتها و قراراتها و أوضاعها دون الحاجة للاحتلال العسكري**"[4].والجانب الثاني يتعلق بالبنى الاجتماعية لتتجاوز الهيمنة مفهومها السياسي المباشرة وتصبح " **من خلال رؤية للعالم والطبيعة والعلاقات الإنسانية يعيشها أفراد مثقفون أو نخبة مثقفة أو مؤسسات ثقافية لتحل بديلا لرؤيا سابقة ولتسهم في التغيير الطبقي الذي يسعى الأفراد أو الجماعات أو المؤسسات لإحداثه**"[5].العلاقات التي تنتج بين البنية الفوقية (الطبقة الحاكمة)، والبنية التحتية (مختلف شرائح المجتمع) والتغيرات التي تطرأ عليها التي تكون على هيئة فعل مقصود،تصبح الهيمنة أحد أبرز الأساليب الإمبريالية الغير مباشرة لتتغلغل بصورة خفية في بنية المجتمعات من خلال مؤسساتها الفاعلة وخصوصا الخطاب لامتلاكه لسلطة الهيمنة "**فيتم تحقيق القبول باستدعاء الخطاب الإمبريالي للتابع المستعمر حتى يتم قبول القيم والافتراضات والعقائد والسلوكات أوروبية التمركز بشكل طبيعي،بوصفها الأكثر طبيعية والأعلى**

1- بيل إشكروفت وآخرون ، الدراسات ما بعد الكولونيالية ، مرجع سابق ،ص 197.

2- كريس هارمان ، جرامشي ضد الإصلاحية ، مركز الدراسات الاشتراكية ،المرجع السابق ،ص 39.

3- ميجان الرويلي وسعد البازغي ، دليل الناقد الأدبي ،مرجع سابق،ص 346.

4- إسماعيل عبد الفتاح عبد الكافي ،الموسوعة الميسرة للمصطلحات السياسية ، مرجع سابق ، ص 479

5- ميجان الرويلي و سعد البازغي ، دليل الناقد الأدبي ،المرجع سابق،ص 346.

قيمة"[1].فالهيمنة تؤثر على فكر المُستعمَر بشكل طبيعي وخصوصا في تقبله المركزية الأوروبية وكونه هامشيا. وهذا ما تسعى إليه الخطابات الكولونيالية " **فإستراتيجية وضع السلطة في هذه النصوص لم تفعل سوى أن محت التاريخ القذر للاستباحة الكولونيالية للممتلكات والاستغلال المادي والقهر العرقي وراء السيادة الأوروبية العالمية"**[2].

2-2 الهيمنة الثقافية Domination Cultural:

لا ينفصل مصطلح الهيمنة عن الثقافة، فهذه الأخيرة تسعى لتحقيق أكبر قدر ممكن من الهيمنة والاحتكار الثقافي كونها عملية اجتماعية كلية " **فالهيمنة تتجاوز الثقافة في إصرارها على الارتباط بالعملية الاجتماعية برمتها من حيث توزع مكامن القوة والتأثير بطريقة دقيقة"**[3]. وهذا ما يؤكده "**إدوارد سعيد" بقوله "هناك بعد أكثر تسويقا لفكرة الثقافة هذه ألا وهو تملكها الامتلاك أي معناه أن الثقافة بمقدورها بفضل موقعها الرفيع أو السامي : أن تجيز وتهمين وتحلل وتحرم ، وان منزلة شيء ما أو ربما الوسيلة الأساسية للإتيان بالتميز القاطع في قلب مضمارها هي وفيما خلف ذلك المضمار أيضا"**[4]. فالثقافة ليست مجرد بيئة أو مجموعة قيم ، فهي ذات سيادة وكما وصفها إدوارد سعيد " **هيمنة مطمور فيها الأفراد في ظروفهم الخاصة وأعمالهم"**[5]. ولذلك يتم الاستحواذ عليها لما لها من قدرة السيطرة أو الهيمنة على أي شخص أو مؤسسة ، واعتبرت الهيمنة الثقافية هي البديل الأنسب والأقوى لسياسة العنف والاستعمار التقليدي .

فالهيمنة الثقافية إذن تعني " **فرض ثقافة معينة من المُتسلِّط على المتسلط علية بشكل ظاهر أو خفي، وإن كنا نختلف حول تسمية الهيمنة بالفعل الثقافي . فهذا سوف يدخلنا في قضايا الجدل الذي يحمل عناصر تفكير مثالية وأشكال غالبها توفيقية، وقد تكون بفعل الوعي السجالي للمسائل الثقافية"**[6]. فهناك ثقافة مُهَيمِنة وهي المعارف والقيم والعقائد والأعراف الاجتماعية والدينية والسياسية للفئات الأقوى في المجتمع ، والثقافة المهيمن عليها وهي معارف وقيم الفئات الأضعف ،"**فثقافة الطبقة المهيمنة لها نوع من التفوق الكامن في ذاتها ،وأن لها**

1- بيل إشكروفت وآخرون ، دراسات ما بعد الكولونيالية المفاهيم الرئيسية، مرجع سابق ،ص 197.

2- المرجع نفسه ، ص 198.

3 - آرثر إيزابرجر ، النقد الثقافي ، مرجع سابق ، ص 109، بتصرف.

4 - إدوارد سعيد ، العالم والنص والناقد ، تر، عبد الكريم محفوظ ، إتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، سوريا ، 2000، ص 10.

5 - المرجع نفسه، ص 10.

6- مختار العربي ، مفهوم الهيمنة الثقافية ، الحوار المتمدن ، ع 14،1167/04/2014.
http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=35445

قوة انتشار تأتيها من جوهرها الخاص وتجعل منها قوة مهيمنة على الثقافات الأخرى طبيعيا"[1]. فالثقافة المهيمنة تكون دائما لدى الفئات الاجتماعية الأقوى من النخبة وصفوة المجتمع والتي تفرض ثقافتها حفاظا على مصالحها، ومكانتها الاجتماعية "**فتراتب اجتماعي ينتج تراتب ثقافي، بحيث توجه الثقافات بعضها بعضا وتسيطر بعضها على بعض، وتقهر بعضها البعض ضمن المجتمع الواحد بالطريقة نفسها التي تحسم فيها المعارك في الصراعات السياسية"[2].**فالغلبة للثقافة الأقوى و التى تملك مبررات السيطرة فينتج عن ذلك هرمية في المجتمع وصعود فئة على حساب أخرى.

" **يرتبط صعود طبقة اجتماعية معينة وهيمنتها ارتباطا عضويا بهيمنة ثقافية وفكرية تهيئ لذلك الصعود وينظرون له مما يعبر عن رؤية للعالم التي تتبناها تلك الطبقة والتي تتبع وتقبل نتيجة جهد المثقفين"[3].** بمعنى أن الفئات المثقفة تمارس الهيمنة الثقافية كتخطيط متعمد ومدروس تؤثر من خلاله على المجتمع تأثيرا بالغا، وتحظى أفكارها بالقبول التي هي في حقيقة الأمر تعبير عن احتياجات الطبقة المسيطرة ،فحدوث التغيير الاجتماعي يعتمد بالضرورة علي على إنتاج ثقافة بديلة لدى شرائح المجتمع الضعيف.

" **إن الصراعات الثقافية، بين الثقافة المهيمنة والثقافة المهيمن عليها صراعات خفية لا واعية ،مموهة تتسرب إلى القيم والمعتقدات بطريقة غير مرئية ، كما أن حدود التقسيم غير واضحة فيها كما هو الحال في الصراعات السياسية (...) فالثقافة المهيمن عليها متكيفة مع الثقافة المُهيمنة ومستهلكة لنسقها الثقافي"[4].**فالثقافة المهيمن عليها هي ثقافة استهلاكية لأنماط جاهزة تتميز بالمراوغة والسرية، تكون مضطرة لقبولها والتماشي معها.

" **إن الثقافة القوية هي التي تغزو الثقافات الضعيفة، والقوة هنا ليست قوة مادية فحسب تستمدها الثقافة من القدرات والإمكانيات المادية التي تتوفر في المجتمع الذي تمثله، وإنما هي إلي ذلك قوة المصدر والدافع الروحي للثقافة وقوة الأفكار التي تعبر عنها وقوة الغايات التي**

1- دنيس كوش ، مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية ، مرجع سابق ، ص 121.

2- رشيد الحاج صالح ، الوجه السياسي للثقافة العربية المعاصرة ،الدار العربية للعلوم ناشرون ، بيروت ، لبنان ،ط 1، 2012، ص30.

3- ميجان الرويلي وسعد البازغي ، دليل الناقد الأدبي ، مرجع سابق ، ص 347.

4- رشيد الحاج صالح ، الوجه السياسي للثقافة العربية المعاصرة ، مرجع سابق ، ص 30.

تسعى إليها"[1]. فالثقافة المهيمنة لها منطلقاتها وأدواتها ودوافعها المعنوية للدفاع عن أفكارها"**فالسعي إلى الهيمنة أمر طبيعي في الحراك الثقافي بوجه عام لأنه ممارسة للسلطة الأبوية الآمرة الناهية ولو على نحو مسالم ،فإن الأمر يزداد سوءا والهيمنة تكون أكثر حدية والنتائج تصبح أعظم وحشية عندما تكون الثقافة التي تحاول الهيمنة ذات طبيعة قمعية في مضمونها ، بحيث لا تقبل الأخر المختلف – أيا كانت درجة اختلافه – ولا تستطيع احتواءه كجزء من الكلي العام**"[2].فكلما كانت الفجوة كبيرة والاختلاف واضح بين الثقافتين كلما كانت وسائلها أعنف وتمارس عليها نوع من القمع الفكري العنيف مما ينتج عنها مسخ الشخصية الثقافية ، وتفاوت درجات الخضوع والامتثال،"**فهناك دائما حقل تفاعل توجد فيه ثقافات بالضرورة ،وهو يحدد درجات الهيمنة والخضوع المتباينة والمتفاوتة ، والتي قد تكون كاملة وساحقة أو سطحية ونسبية حسب عمق وغنى هذه الثقافات وميادين الإبداع والنشاط الذي تتميز به**"[3]. ومثال ذلك سعي الاحتلال الفرنسي إلى الى طمس الهوية الثقافية الجزائرية إبان فترة الاستعمار بصهر الفكر الاديولوجي الاستعماري والثقافة الفرنسية شكلا وروحا ، فقد استخدمت كل الوسائل القمعية لهدم البنية الثقافية ، وإعادة إنتاج ثقافة تفرض نفسها إلى حد ما تستهدف الهوية والانتماء والخصوصية الثقافية للمجتمع الجزائري.

2 – 3 الهيمنة اللغوية domination linguistique :

باعتبار اللغة الحامل الأكبر للثقافة وارتباطها بها وبالقيم الحضارية، فإن الثقافة المهيمنة تنتقل عبر اللغة ولهذا يسعى الفكر الاستعماري للسيطرة عليه،"**إذ تمثل السيطرة على اللغات أحد الملامح الرئيسية للاضطهاد الذي مارسته الإمبراطورية**"[4]. فمنذ البداية نظر إليها بوصفها وسيلة للحفاظ على الهوية الثقافية فقد "**اهتم المستعمر كثيرا بحرب الثقافات والقيم ويسعى إلى كسب النخبة الأهلية ،لأنه يئس من استمالة الجماهير، وكيف أن التربية الاستعمارية والتوجيه الاستعماري أفسد ثقافة النخب المحلية وقيمها، كانت تتحرك حتى غدت نسخا باهتة من ثقافة المستعمر وقيمه إلى درجة أن هذه النخب في مطالبتها بالاستقلال ضمن الأطر الفكرية**

1– عبد العزيز التويجري ، الثقافة العربية والثقافات الأخرى ، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة ، إسيسكو، ط2، 2015، ص 4.

2– محمد علي المحمود ، الثقافة وإشكالية الهيمنة ، مجلة الرياض ، العدد 15376. http://www.alriyadh.com/15736

3– عبد الغني عماد، سوسيولوجيا الثقافة ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، لبنان، ط1، 2006، ص 296.

4 - بيل أشكروفت وآخرون، الرد بالكتابة ، مرجع سابق ، ص 25.

والسياسية التى وضعتها البرجوازية الاستعمارية، ولذلك سرعان ما أصبحت هذه النخب واسطة بين الاستعمار والشعب الثائر"[1]. فالنخبة المتفرنسة كانت الواسطة ومهمتها السيطرة الفكرية على الشعب بجعلها نسخة أروبية ،" **إذ تنتقل الظواهر الثقافية داخل الأشكال اللغوية الموافق عليها من قبل الجماعة ولذلك فإن تعلم اللغة في الوقت نفسه تعلم للبنية الاجتماعية**"[2].

لقد خضعت الجزائر للاستعمار الفرنسي وتداخلت عدة إستراتيجيات في إحكام السيطرة عليها لمدة طويلة ، لكن غداة الاستقلال كان لابد لفرنسا من اللجوء إلى حل بديل عن الاستعمار العسكري وهو الاستعمار الثقافي" **فقد تمكنت فرنسا من الانسحاب الشكلي والإبقاء على مصالحها الإستراتيجية في المنطقة بالاعتماد على خدامها الأوفياء من المستعمرين،الذين يحملون راية الفرانكفونية عاليا ويشكل هؤلاء في الأغلب النخبة السياسية الحاكمة، وكذلك من النخبة الثقافية التى دافعت عن مصالح فرنسا في المنطقة بإدعاء الدفاع عن قيم الحداثة التي لا يمكنها أن تجسد إلا عبر اللغة الفرنسية**"[3].فإخضاع الشعب ثقافيا عبر اللغة تعتبر أخطر أنواع الهيمنة لتركيزها على النخبة والعناصر الفاعلة في المجتمع ،إذ يتم ترويجا كقيم حضارية و حداثية وإقناع الطبقة المهيمن عليها بها دون وعي منها بخطورتها."**فقد نهج الاستعمار سياسة لغوية قائمة على أساس القضاء على اللغة العربية وحاربتها بكل وسائل التهميش والتحقير،وبالمقابل عمل على ترسيم الفرنسية وتشجيع تعليمها خاصة في أوساط الأعيان في المدن الكبيرة (...). إن الفرنسيون تيقنوا أن اللغة العربية هي اللغة الوحيدة التي تملك الوجود الحضاري القوي (...) ،وبذلك تعمد إلى إقصاء اللغة العربية عامة، والفصحى بصفة خاصة من كل المجالات الحيوية كالإدارة والتعليم والإعلام والاقتصاد**"[4].فاللغة هي المدخل الرئيسي إلى كسر هوية المستعمرات لغويا وثقافيا وتعويضها بأخرى استعمارية بديلة ، فجعلت من اللغة الفرنسية لغة مركزية معتمدة وبالمقابل عملت على تهميش اللهجات المحلية والعربية الفصيحة من المؤسسات الرسمية وتشكيل نخب سياسية وثقافية لتحافظ على تواجد اللغة الفرنسية .

1- إلياس بلكاوي ومحمد محرز ،إشكالية الهوية والتعدد اللغوي في المغرب العربي،مركز الإمارات لدراسات والبحوث الإسترتيجية، أبو ظبي ، ط1، 2014، ص 82-83

2- المرجع نفسه ، ص 25.

3- إدريس جنداري ، الفرنكوفونية اديولوجية استعمارية بغطاء ثقافي ولغوي ، التجديد العربي ، 11 جويلية 2011. http://www.arabrenewal.info

4- إلياس بلكاوي ومحمد محرز، إشكالية الهوية والتعدد اللغوي في المغرب العربي، مرجع سابق، ص 49.

وابرز مثال عن الهيمنة اللغوية الفرنسية هي تلك الاستراتيجة البعيدة المدى التي تم تنفيذها بواسطة " **شارل ديغول**"، إذ وصل إلى حقيقة مفادها هي "**إن الجزائر مستقلة لا محال وأن المهم العمل من أجل أن تبق في دائرة النفوذ الفرنسي بعد الاستقلال، فأمر منذ استلامه الحكم بأن توسع ما عرف بـ" برروموسون لا كوست" المتمثلة في تكوين الآلاف من الشبان الجزائريين إداريا بالفرنسية ، كي تسلم لهم إدارة الجزائر المستقلة فيحافظ على هيمنة اللغة الفرنسية على الحياة الجزائرية بعد الاستقلال، ويضمن بقاء الجزائريين يدور في فلك النفوذ الفرنسي**"[1].وبالفعل نجح ديغول في تكريس هيمنة اللغة الفرنسية في جميع المؤسسات الجزائرية حتى أن نص اتفاقية إيفيان حسب الأدلة التاريخية التي أبرمت سنة 1962 تمت كتابتها باللغة الفرنسية فقط.

كما سيطرت على المؤسسات الحيوية والدوائر الحكومية وقد ركزت مجهودها على منظومة التعليم، وعملت على تكوينها تكوينا فرانكفونيا حيث كانت لغة التدريس هي الفرنسية. إستمرت هذه الهيمنة بالرغم من الجهود المبذولة للتخلص منها بتعريب جميع المؤسسات وإلغاء الفرنسية من مناهج التعليم "**وهكذا تمت هيمنة اللغة الفرنسية على الجزائر الرسمية فلا يسمع إلا اللغة الفرنسية ، ولا يرى إلا الوثائق المكتوبة بالفرنسية** "[2].بمعنى أن الإدارة الفرنسية نجحت في تكوين نخب محلية تتولى مهمة الهيمنة "**مما لا شك فيه أن الفرانكفونية تعمل كبديل شبه متحضر للاستعمار ولكن على أوسع نطاق بواسطة أبناء البلاد**"[3]. ففرنسا تسعى للحفاظ على مكانتها والأفضلية للغتها إذ كانت تعتبر لغة أوروبا الأولى والنخبة والطبقة المثقفة ومعيارا للرقي الحضاري والتصنيف الطبقي " **يعلل بعضهم هيمنة الفرنسية بتفوقها الميتافيزقي كما يقول كزافيي حيث أن لغتها تمتلك نوعا من التفوق على لغات العالم الأخرى ، فإن ميزاتها وأنماطها في التحليل والتركيب تفسر إذا جودة الفكر الفرنسي وإشعاع فرنسا الثقافي**"[4]. فالاستعمار الفرنسي فرض لغته وثقافته وأنماط تفكيره في الجانب اللغوي ،إذ عمل على فرنسة مستعمراته بدعوى التفوق الحضاري للفة الفرنسية ورقيها،وأنها ضرورية لهذه الشعوب للحفاظ على التنوع لثقافي " **فكرة الفرانكفونية قديمة قدم المشروع الاستعماري الفرنسي في بلادنا العربية و حايثة له،بمثل ما**

1- عثمان سعدي ، التعريب في الجزائر كفاح شعب ضد الهيمنة الفرانكفونية، دار الأمة للطباعة والترجمة والنشر والتوزيع ،ط1، ص 6.

2- المرجع نفسه،ص 07.

3- إلياس بلكاوي ومحمد حراز، إشكالية الهوية والتعدد اللغوي في المغرب العربي ، مرجع سابق ،ص 82.

4- المرجع نفسه،ص 80.

هي باقية – وستبقى- ما بقي في جعبة فرنسا بصيص من التطلع إلى مقاربة عالمنا بعين الكولونيالية لا ترى غير أملاك استعمارية تقدم لها الجزية الثقافية عن حيازتها حقا في الاستقلال الوطني"[1].فكرة اللغة الفرنسية ما هي إلا قربان أو تمجيد للاستعمار لمنحه الاستقلال لمستعمراتها باعتبارها أملاك فرنسية مازالت تحت الاستعمار،"**لذلك انصرفت بعناية إلى توفير شروط ديمومة سيطرتها في المستعمرات حتى بعد اضطرارها إلى التخلي عنها، وأفرغت جهد جهيد للاستيلاء على العقل واللسان والوجدان استمرارا لصلة إتباع يرتبط بها بالمغلوب الغالب**"[2]. فنهاية الاستعمار كانت شكلية، فالمستعمرات مازالت تابعة لغويا فأغلبية المستعمرات الإفريقية أصبحت لغتها الوطنية هي اللغة الفرنسية.

ولم تقتصر هيمنة اللغة على الأفراد والمؤسسات وحسب.بل انتقلت إلى الكتابة الأدبية كرد فعل طبيعي لسياسة انتهجتها القوى الاستعمارية ، ولكن بإمكانها مناهضة الاستعمار "**كما أن هذه اللغات قد توظف للتعبير عن رؤى لها من القوة والتأثير المماثل تماما ما يجعلها تؤلف نصوصا مناهضة للكولونيالية كذلك فقد تتمر نتائج أبعد من ذلك لا يمكن للغة أهل البلد الأصلية أن تثمرها بسهولة فتقد أسلوبا مختلفا للمقاومة المابعد كولونيالية في وجه الهيمنة الثقافية**"[3].بمعنى أن اللغة المهيمنة بإمكانها أن تتحول إلى لغة مقاومة.

خلاصة القول أن الشكل الحقيقي للهيمنة الثقافية هي خطط امبريالية تظهر بشكل عام في تقديس المجتمعات التي خضعت للاستعمار للآخر خصوصا الكلمة والنظم المعرفية التي تمثل في آليات تتحكم في العقل بشكل لا شعوري حيث "**تعد مستعمراتها السابقة التي هي الآن بعيدة عن الهيمنة الرسمية وموضوعات ورغبات أوروبا الإمبريالية.ويتم تمثيل هذه الرغبات ليس حسب التركيبة الغربية لمستعمراتها بل أيضا كنواح محلية على الخريطة الإديولوجية التي يستمرون في حكمها أخلاقيا وثقافيا**"[4]. ولهذا تبقى الدول التي تخضع للاستعمار تابعة أخلاقيا وفكريا واقتصاديا .

1- عبد الإله بلقزيز، الفرانكفونية اديولوجيا سياسات تحد ثقافي-لغوي ، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ، لبنان، ط1، ماي 2011، ص 18.

2- المرجع نفسه ،ص 20.

3- بيل إشكروفت وآخرون ، دراسات ما بعد الكولونيالية المفاهيم الرئيسية ، مرجع سابق ، ص71.

4- وليام هارت ، إدوارد سعيد والمؤثرات الدينية للثقافة ،تر: قصي أبو الذبيان، هيئة أبوظبي للثقافة والثراث (كلمة)، ط 1،2011، ص154

3- جدلية الأنا و الأخرDialectique du moi et l'autre :

ارتكزت الدراسات ما بعد الكولونيالية على جدلية العلاقة بين الأنا والآخر وذلك لفهم العلاقة التفاعلية بين الطرفين .هل هي إيجابية قائمة على التعاون والتعايش السلمي أم أنها علاقة عدائية تقوم على الصراع والإقصاء والتهميش .

إن العلاقات الإنسانية قائمة على التفاعل أفرادا وشعوبا في مسارها الطبيعي ولكن يتغير هذا المفهوم حسب نظرة الفرد على الآخر، فتنحرف عن مسارها الطبيعي فتحكمها مصالح ومبررات لا أخلاقية تؤدي إلى إلغاء الفرد للأخر ن بمعنى أن وجود الأخر ضروري وحتمي لقيام أي علاقة بين طرفين اثنين سواء كانت عدائية أو متسامحة " **فالأنا لا يتحدد إلا عبر الأخر سواء تعلق الأمر بالفرد أو الجماعة فإن أي مشروع للمستقبل يبنيه الإنسان لنفسه لابد أن يأخذ بعين الاعتبار بصورة واعية ولا واعية ،فعل الأخر أو رد فعله "أخر اليوم "و آخر الغد. ذلك إذ كان الإنسان اجتماعيا بطبعه كما يقولون فإن مستقبله مثل حاضره مشتركا بطبعه أيضا**"[1].فهناك علاقة وطيدة بين أبدية الأنا والأخر فلا وجود لكيان دون غيره ونستدل على وجوده.

" **جدلية الذات والأخر تعني في الحالات كلها،إنه يستحيل وجود الواحد منهما دون الأخر أو معرفة الواحد منهما دون معرفة الأخر ،حتى أصبح كل من هذه الثنائية عاملا لمعرفة الأخر. فهما ذاتان منفصلتان في الوقت نفسه مفترقان ومتحدان ن وغدت العلاقة الجدلية بينهما جزء من كل منهما وشرطا لوجوده واستمراره**"[2].فلا وجود للذات والإعتراف بها دون الأخر المنفصل عنها.

3 -1 مفهوم (الأنا/ الذات):

تعرف الذات حسب معجم اللغة العربية المعاصرة " **اسم ذات يدل على شيء محسوس مثل باب و حجر و بحر مقابل اسم المعنى مثل علم وشجاعة**"[3]، فهي إذن ما يدل على الوجود و الكينونة .

1- محمد عابد الجابري، مسألة الهوية والعروبة والإسلام والغرب، مركز دراسات الوحدة العربية، سلسلة الثقافة القومية27، قضايا العربي 3، بيروت ،لبنان،2012، ص 11.

2- وليد خالد أحمد ،الأخر في الثقافة العربية من القرن السادس عشر حتى القرن العشرين، كتابات، الخميس 4 أذار 2013، ص 02.

3- أحمد عمر مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة ، مرجع سابق ،ص 801.

فالأنا أو الذات هي إحساس الفرد بوجوده وهي بذلك مرادف للهوية وتعتبر من المفاهيم الفلسفية عند " **رونيه ديكارت Rene Descartes** " أو ما يعرف بالكوجيتو الديكارتي "**أنا أفكر إذن أنا موجود**".

فالذات المفكرة هي ذات موجودة ولها ماهية في الوجود من خلال إدراكها العالم الخارجي عن طريق الفكر وعملياته الذهنية.

أما "**اندريه لالاند Andre Laland** " فيعرفها بقوله " **وعي الفرد التجريبة** "**إن أناه (أنا التمثال) هو في أن وعي ما هو وعليه وذكرى ما كان عليه(...) ، فليس أناه سوى مجموعة أحاسيسه التي يشعر بها وتلك التي تذكره بها الذاكرة**"[1]. فالذات عند لالاند هي الذكريات التي يستعيدها الإنسان ويعيشها في حياته اليومية، ويضيف قائلا: "**للأنا صفتان فهو ظالم بذاته،من حيث أنه يضع ذاته ضد الكل، وهو متنافر مع الأخرين من حيث أنه يرغب في إستبعادهم لأن كل أنا هو العدو ويريد أن يكون المستبد بكل الآخرين**"[2]. فالأنا عدائية وتريد السيطرة على الكل فمفهمو الأنا يتأسس على السيطرة أي سيطرة الذات على كل ما تتخذه موضوعا لها.

3- 2 مفهوم الأخر :

الآخر كل ما هو خارج عن الذات وغريب عنها ويشكل نقيضا لها"**الأخر في أبسط صوره مثيل أو نقيض الذات أو الأنا**".**فكل مالا يشير إلى الذات هو الأخر**" **المختلف في الجنس أو الإنتماء أو الدين أو العرق**"[3].بمعنى الأخر تتحدد هويته حسب طبيعته الجنسية (ذكر/أنثى)، أو انتماءه الجغرافي و القومي (شرقي/غربي) أو عقائدي (مسلم /مسيحي)...الخ.كما يشير الأخر "**في عمومه إلى أي شخص مميز عن الذات ووجود الآخرين أمر ضروري لتعريف ماهو عادي وتحديد موقع المرء من العالم**"[4].إذن لا وجود دون توفر شرط الاختلاف والتمايز لتفريق بينه وبين الذات .

1- أندريه لالاند،موسوعة لالاند الفلسفية ، تر: خليل أحمد خليل ، منشورات عويدات ، بيروت لبنان ، ط2 ،2001، م(A-G)، ص824.

2- المرجع نفسه، ص824.

3 – ميجان الرويلي وسعد البازغي ،دليل الناقد الأدبي، مرجع سابق ، ص 21.

4 – ماجدة حمود ، إشكالية الأنا والآخر ، عالم المعرفة . الكويت ،ع 398، مارس 2013. ص17.

2- 3 – ج طبيعة العلاقة بين الشرق والغرب:

صلة الشرق بالغرب صلة قوية لم تنقطع على مر العصور،واتصال الشرق العربي بالغرب الأوروبي أتخذ أشكالا تاريخية متعددة ، كانت علاقة التأثير والتأثر يتجاذبها الطرفان في صراع مستمر لا مفر منه يقول" **جون بول سارتر Jean Paul Sartre** ": "**حين أحاول التحرر من تأثير الأخر، يحاول الأخر أن يتحرر من تأثيري، وحين أحاول أن استعيد الآخر، يحاول الأخر أن يستعيدني، ينبغي أن ننظر إلى القضية الآتية عبر منظور الصراع ،فالصراع هو المعنى الأصلي لوجود الأخر**"[1].فقد ساد التوتر والاضطراب في علاقة الشرق بالغرب باعتبارهما قطبين متنافرين فكريا وثقافيا ودينيا، وهذا الاختلاف ولد عدة صراعات بين الطرفين ، صراع المواجهة، صراع الفكر، وصراع الحضارة. وجرى تبادل السيطرة وفرض السيادة على الحضارات والشعوب بين العرب وأوروبا، بكل ما تعنيه السيطرة والقوة من معنى، مع اختلاف في النظرة السلوك والتعامل لكل منهما اتجاه الأخر،باستغلال الزخم الفكري والمادي والحضاري لمواجهة الأخر" **فلم تعد كلمة الغرب توحي بالجهة المقابلة للشرق، ولكنها أضحت مدلولا اصطلاحيا يعني ثقافة غربية بغض النظر عن الجهة التي أفضت هذه الثقافة الغربية ،تفضي إلى مناقضة الإسلام مما يدعو إلى إتحاد موقف من هذه الثقافة**"[2]. فالغرب كل ثقافة مناقضة للإسلام هي غربية، فالصراع في بدايته كان صراعا دينيا بين عقدتين كون إحداهما تؤثر في المعطيات الحضارية للأخرى ،"**فإذا رفضنا اعتبار الغرب ماهية جغرافية ،نظرنا إليه باعتباره حالة فكرية متجهة نحو السيطرة على الطبيعة والناس**"[3]. فالأخر في الفكر الشرقي مرتبط بالسيطرة والإخضاع الجبري.

"**إن العدواة هي الملاحظة المسيطرة في إحساس الغرب إتجاه الإسلام (...) فلو دافع المسلم عن بيئة ودينه وأمته. فإنه لا ينظر إليه وطني ،بل متوحش، وإذا ما أظهر الشجاعة والبطولة ،فيقال عنه متعصب. وإذا هزم وأظهر الاستسلام فيقال عنه جبري (...). إن الإسلام محكوم عليه دون محاكمة، وتشوه سمعته بانتظام ويسخر منه دون معرفته**"[4].فالمسلم محل شبهة وإطلاق أحكام انطباعية دون سابق علم أو معرفة.وخلاف ذلك أعتبر الشرق كآخر غريب

1- جون بول سارتر، الوجود والعدم ، تر: عبد الرحمان بدوي ، منشورات دار الآداب، بيروت ، ط1، أغسطس1966،ص730.

2- على إبراهيم حمد النملة ، الشرق والغرب منطلقات العلاقة ومحدداتها، بيهان ، الرياض ، ط3، 2010، ص 28.

3- روجيه غارودي ، في سبيل حوار الحضارات ، تر: مازن مطبقاني ، دار الوعي للنشر والتوزيع ، الرياض ، ط1، 2013، ص20.

4- ضيف حسن ،صراع الغرب مع الإسلام ،تر:عادل العوا ، عويدات للنشر والتوزيع ، الرياض، ط1، 2013،ص 66.

وعجيب في الدراسات والثقافات الأوروبية ورسمت حوله تصورات تنزع إلى التغريب والتجاهل " **وقد ظهر الإستشراق كفعالية من فعاليات التمركز الغربي على الذات ، وقد شكل الشرق في إطاره موضوعا لتفكير نتجت عنه دراسات وأبحاث وأقوال مختلفة بدا فيه الشرقي نمطا متلبسا ومفعما بالأساطير والتصورات المغلوطة وظهر فيها الشرق مغايرا ومفارقا لواقع الشرق ذاته**"[1].ولذلك كان هذا الاختلاف القائم مابين الثقافات المشرقية والثقافات الغربية كون في المخيال الغربي " **نمطا من الإسقاط الغربي على الشرق وإرادة السيطرة عليه**"[2]. فالعلاقة في مجملها هي علاقة سيطرة واستعمار، و"**إخضاع مجتمعات وشعوب العالم للنموذج الأوروبي عبر مختلف أشكال الإنتداب والاستعمار والسيطرة ، ورأت القوة المسيطرة في الغرب الحديث ضرورة إخضاع الشعوب للنموذج الغربي بوصفه النموذج الأمثل والأصلح لمختلف الشعوب وأحتل الغربي (الرجل الأبيض) فيه القطب الأول**"[3].فالغربي كان يعتبر نفسه مثاليا ويجب الإحتداء به لذلك كانت نظرته مستعلية " **فالشخص الأوروبي ينظر إلى غير الأوروبي نظرة قائمة على الفوقية بغض النظر عن الخلفية الثقافية لهذا الشخص**"[4]. بإعتبار تفوق الأعراق الأوروبية عن غيرها،وأنها أرقى الأجناس البشرية فللنظرية العرقية دورها في تحديد هذه الصورة الدونية للأجناس الأخرى، وهذا ما أدى إلى ظهور المركزية لدى الفكر الأوروبي فالمركزية الأوروبية إختزلت الإنسان العربي"**بالصفات الإجتماعية المتعلقة بالأنا" العربية الإسلامية" بصفة الاستبداد وقد حاولت الدراسات الإستشرقية جعل الشرق يعيش ضمن قدر لا فكاك منه لهذا حاصرته في ثلاثة أطر، الهوية التي تختلط فيها القبلية بالدين بالعرق والموقع الجغرافي، ثم ثقافته الممانعة لمختلف أنواع العقلانية،وأخيرا نظامه السياسي القائم على استلاب الحرية**"[5].وهي صورة اختزالية للمجتمع العربي ،صورة ضيقة ونمطية مشوهة ،وكل ما سبق ساد كثنائية ضدية (الأنا/الآخر) في الخطاب الاستعماري وما بعد استعماري لتجسيد العلاقة بين المُستعمِر والمُستعمَر.

فالفكر الاستعماري الإمبريالي يتأسس على وعيه بالأخر المستعمَر" **وفي نظرية ما بعد الكولونيالية يمكن أن يشير هذا المصطلح إلى الآخرين المستعمرين المهمشين بسبب الخطاب**

1- حسن شحاتة ، الذات والأخر في الشرق والغرب ، دار العالم العربي ، القاهرة ، ط2008،1،ص26.

2- إدوارد سعيد ، الإستشراق، محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة ، ط1، 1996، ص 120.

3- حسن شحاتة ، الذات والأخر في الشرق والغرب، مرجع سابق ، ص 28.

4 - على إبراهيم حمد النملة ، الشرق والغرب منطلقات العلاقة ومحدداتها، مرجع سابق، ص 27.

5 - ماجدة حمود ، إشكالية الأنا والآخر، مرجع سابق ،ص 20-21.

الإمبريالي ،والمحددين باختلافهم عن المركز والذين قد يصبحون مرتكز السيادة المنتظر لدى الأنا الإمبريالي"[1]، تأكيد فكرة مركزية الغرب،وهامشية الشرق أقنع بها الغرب الخطاب الإمبريالي بعد أن صنع للشرق صورة مناقضة له تؤهله أن يحتل المرتبة الدنيا بجدارة، فالشرق عاجز عن تمثيل نفسه لقصوره العقلي ودونية عرقه لذا يجعل الغرب من ذاته مركزا ووصيا على هذا القاصر، هذا الأخير لا يستطيع أن يتحرك خارج دائرته "**إنه يوفر الشروط التي تكتسب من خلالها الذات المستعمرة إحساسا بهويتها كأخر تابع والثاني يصبح قطب الخطاب المطلق،أي الإطار الإيديولوجي الذي يمكن من خلاله أن نفهم الذات المستعمرة العالم حولها،في الخطاب الكولونيالي تتموضع ذاتية المستعمر على الدوام في تحديق الأخر الإمبريالي**"[2]. فالأخر المستعمر هو المحور الذي تتشكل حوله المفاهيم والمنطلقات المعرفية التي تستطيع الذات المستعمَرة أن تدرك من خلالها العالم." **فكان الهامش يخضع للسيطرة والتي تتم عن طريق العنف واستخدام القوة ،ويعاني باستمرار من تجاهل المركز لاحتياجاته ويئن تحت وطأة القمع والإقصاء والعوز الاقتصادي**"[3].إذن فالعلاقة بين الشرق والغرب هي علاقة صراع حول المركز، القيم ، الثقافة ، المعرفة، السيادة ، شكل صورة كريهة ومزيفة ومتخلفة عن الأخر المقابل .

1- بيل إشكروفت وآخرون ، دراسات ما بعد الكولونيالية المفاهيم الرئيسية ، مرجع سابق ، 263.

2- المرجع نفسه ، ص 264.

3- سامح محمد إسماعيل،الجماعات الهامشية بين المركز والأطراف،منتدى العلاقات العربية والدولية،2015/05/27، ص 02.

الفصل التطبيقي

تجليات الرؤية ما بعد الكولونيالية والبحث عن الهوية

1- بين رواية "ميرسو،تحقيق مضاد (معارضة الغريب) و رواية الغريب

1-1 – تلخيص رواية الغريب لألبير كامو:

رواية "**الغريب L'étranger**" **لألبير كامو Albert Camus** " صدرت سنة 1942. عن دار غاليمار ترجمت إلي العربية سنة 1990 عن دار الأدب ببيروت .

تدور رواية الغريب حول شخصية رئيسية هي " مورسو" بطل الرواية ، تقع أحداثها بمدينة الجزائر سنة 1942. يقيم علاقة بفتاة اسمها " ماري كردونا " تضرب على الآلة الحاسبة في مكتبه .

يتقلى مورسو في أحد الأيام برقية من مأوى العجزة ب" مار نغو" – مدينة تقع على بعد ساعتين من مدينة الجزائر– تبلغه وفاة أمه ، وعليه أن يحضر في اليوم الموالي لدفنها، يستقل مورسو الأتوبيس إلى مار نغو يشارك في مراسيم دفنه أمه التى لم يزرها منذ سنة تقريبا بسبب ظروفه المادية وطول المسافة ، يدفنه أمه هناك ويعود أدراجه إلى الجزائر.

في اليوم المالي ليوم للدفن يستيقظ مورسو ليكمل حياته كمان يعيشها من قبلن بين غرفته و المكتب، وصديقته ماري التي يقابلها كل يوم عطلته الذي يصادف يوم الأحد ، يذهبان سويا إلى شاطئ البحر للسباحة وترافقه ماري بعها للسينما ، ثم ينتهي يهما المطاف في غرفة "مورسو"

ذات ليلة يدعوه " ريمون " لتناول العشاء في غرفته ، والسهر معه تلك الليلة .فيحدثه عن عشيقته العربية ومشاكله معها ،واكتشاف خداعها له وكيف ابرحها ضربا فيقترح عليه "مورسو" إن ينتقم منها بطريقة ما.

يتلقى " مورسو " اتصالا هاتفيا من " ريمون " في احد الأيام بينما كان في مكتبه، يدعوه لقضاء يوم العطلة عند صديقه " ماسون"علي شاطئ البحر،ي قبل الدعوة وترافقهما كذلك ماري، يذهبون للسباحة في البحر وتناول الفطور في بيت "ماسون" – كوخ صغير يعيش فيه مع زوجته–

يخرج الرجال الثلاثة بعد الفطور لشاطئ،يصادفون رجلين عربيين كان يقتفيان أثر "ريمون، مورسو، ماري" منذ أن ركبوا الأتوبيس،إنه شقيق عشيقة ريمون وصديقه. يدور بينهم شجار عنيف ، تجرح ذراع ريمون بضربة سكين كان يحملها غريمه،يأخذه "ماسون" إلى طبيب قريب ، و"مورسو"يعود إلى الكوخ ليبقى بجوار المرأتين .

يعود "ريمون " إلى الكوخ وقد ضمدت ذراعه،ليقرر بعدها الخروج إلى الشاطئ مجددا، فيتبعه مورسو".ظلا يتمشيان على الشاطئ حتى وصلا إلى منبع خلف صخرة ضخمة، وجدا

العربيين هناك .يتبادلون نظرات مريبة وعدائية ، يحاول " ريمون" إن يخرج مسدسه ويطلق عليهما النار ن لكن "مورس" يقنعه انه ليس هناك مبرر لذلك. يأخذ منه المسدس ليحتفظ به في جيبه ، يختفي العربيان فجأة خلف الصخرة ، بطلنا وجاره يعودان إلى الكوخ .

كان ذالك اليوم شديد الحر والشمس حارقة، بعد لحظات من دخولهما الكوخ يعد "مورسو" إلى الشاطئ مرة أخرى ،يتمشى إلى غاية النبع البارد،كان يفكر في أخد قسط من الراحة هناك هروبا من الشمس والجهد وبكاء النسوة، فيصادف غريم "ريمون" مجددا عند الصخرة.

يتواجه الطرفان دون شجار أو عراك، أو حتى تبادل أي كلام ن كانت الشمس قاسية على " مورسو" تذكره بيوم دفن أمه ، تقدم خطوة غلى الأمام ليتخلص منها فيخرج "العربي" سكينه فتنعكس أشعة الشمس على وجه "مورسو" ، فيتوتر ويفقد السيطرة على جسده .تتشنج يده ليجد نفسه يضغط على نابض المسدس ، يطرح العربي على الشاطئ قتيلا ، ينفض العرق من جبينه تحت صدمة قتل العربي والشمس تشتد عليه فيطلق على جسده الميت أربع رصاصات أخرى.

يوقف "مورسو" مباشرة ، يستجوب ويحقق في القضية .ويستجوب كل المحيطين به وصولا إلى مأوى العجزة في "مارنغو"،وأثناء التحقيقات التي أجريت في المأوى يصل قاضي التحقيق إلى انه لم يحزن لموت أمه، ولم يقم بواجبه معها وأنه تصرف ببرود ولامبالاة حيال موتها، ليجد "مورسو" نفسه متهمة بقضية جديدة هي "عدم الإحساس" وإهماله لوالدته ، حيث تثبت التهمة عليه بواسطة الشهود الذين حضروا الدفن وعمال المأوى .

يحاكم "مورس"وسط ضجة كبيرة على جريمتين ،الأولى قتله العربي، والثانية إهماله لأمه عند موتها.يفصل في القضيتين يبرئ من الجريمة الأولى مع توفر الأدلة الدامغة لذلك وأعزيت الجريمة إلي الشمس.ويدان في الجريمة الثانية ويحكم عليه بالإعدام.

1-2- تلخيص رواية " مورسو، تحقيق مضاد" لكمال داود:

" **مورسو، تحقيق مضاد** " **Meursault,contre – enquête**" صدرت سنة 2013 بالجزائر بمنشورات البرزخ ،صدرت الطبعة الثانية سنة 2014 بفرنسا بمنشورات " أكث سود". ترجمة إلى العربية بعنوان " معارضة الغريب" سنة 2015 تحت إشراف دار الحديد ببيروت بقلم ماريا الدويهي وجان هاشم.

رواية "معارضة" الغريب هي رد على رواية " الغريب" لألبير كامو، تدور أحداث الرواية في مدينة الجزائر بقرية اسمها "جحوظ" أو "مارنغو" سابقا سنة 1962.

تدور الرواية حول " هارون" شقيق "موسى" القتيل في رواية الغريب لألبير كامو، يعيشان مع أمهما في جحوظ ،هارون يعمل في دائرة تفتيش أملاك الدولة،و"موسى" حمالا في المرفأ، أبوهما حارس ليلي يهجر والتهما دون سبب محدد إلى وجهة مجهولة ولا أحد يعلم عنه شيئا.

يلتقي هارون بطالب فرنسي في حانة أعتاد ارتيادها للشرب، يعد أطروحة دكتوراه حول رواية " الغريب" يعيد هارون سردها له من وجهة نظره،الرواية منولوج طويل يهدي به هارون في الحانة، يقص عليه كيف قتل موسى علي شاطئ مدينة الجزائر وهو يدافع عن شرف فتاة على يد فرنسي، وكيف أنه لم يعثر علي جثته ولم تقم مراسيم الدفن والعزاء .

يترك مقتل موسى أثرا رهيبا لدى إلى درجة أنه يطارده شبحه في كل مكان،ويلازمه كظله ولا يفارقه أبدا و يحثه على الانتقام، تساعده في ذلك أمه التي دخلت في حالة من الحزن و الرغبة الشديدة في الانتقام من قاتل هارون ، قتل أي فرنسي لا على التعيين كفيل برد حقها كأم، وليس بالضرورة القاتل نفسه.

في مارس 1962 تم الإعلان عن وقف إطلاق النار والاقتتال بين الثوار والمستعمرين، ومع بداية خروج المعمرين من الجزائر يستولي هارون وأمه على منزل أسرة أحد المستوطنين الذين غادروا الجزائر قبل الإعلان الرسمي للاستقلال.

بعد إعلان الاستقلال 5 جويلية 1962، وفي تلك الليلة فر أحد الفرنسيين هاربا من الأهالي ليدخل بيت هارون بالصدفة لجوءا إليه ، فيستغل هارون الفرصة للثأر لأخيه ، وتحرضه أمه على ذلك،فيقتله هارون برصاصتين.يدفن الفرنسي القتيل في فناء المنزل تحت شجرة الليمون لتمحى بعد ذلك أثار الجريمة.

في اليوم الموالي يأتي الجنود للبحث عن فرنسي اختفى في تلك الليلة ، تم توجيههم من قبل الأهالي إلى بيت هارون لأنهم سمعوا صوت إطلاق النار يخرج من هناك ، أعتقل من طرف جبهة التحرير الوطني ، وأثناء التحقيقات يعترف بارتكابه الجريمة ، فيتضح انه مدان بها لأنه ارتكبها في الوقت الخطأ بعد الإعلان الرسمي لاستقلال الجزائر،لذلك لم تعتبره عملا ثوريا واتهمته بالعمالة والخيانة لأنه لم يشارك في الحرب، في صباح اليوم الموالي يطلق سراحه من دون أي تبرير.

1-3-قراءة في العنوان " مورسو، تحقيق مضاد"

تجدر الإشارة و التنويه إلى أني تعمدت تحليل العنوان الأصلي للرواية، وليس عنوان الترجمة ذلك أن العنوان غني بالدلالات والإيحاءات ، وأن عنوان الترجمة ليس إلا اصطلاح فقط ويكمن لترجمة أن تحمل عنوان آخر غير العنوان الأصلي. بالإضافة إلى أن شخصية مورسو عالقة في ذهن القارئ بكل تفاصيلها وهذا ما يسهل عليه فهم الرواية وفهم الدراسة بشكل أفضل .

إن اسم مورسو يعيد إلى ذهن القارئ رواية الغريب لألبير كامو، ويستحضر هذه الشخصية بكل أبعادها " فمورسو" قاتل العربي على شاطئ بحر الجزائر إثر مناوشة كلامية بسبب فتاة.ما يميز هذه الشخصية على صعيد بنائها الفكري، فإنها شخصية عدمية لا تعط قيمة لهذا الوجود ولا للقيم الاجتماعية " **هاهي أمك التي هنا؟ قلت " نعم ". سألني هل كانت عجوزا؟ أجبت تقريبا لأنني لم أكن أعرف السن بالدقة**"[1].

لا يعرف شيئا عن أمه غير أنها والدته فقط ، لا يكترث لوفاتها "**اليوم ماتت أمي أو ربما ماتت أمس .لست أدري**"[2]. غير مبال ولا مهتم كأنه يشاهد خبرا على قناة تلفزيونية ،يرجع إلى عمله بعد انتهاء مراسيم العزاء يستمر في حياته كأن شيئا لم يكن ، فبعده عن أمه لسنوات جعله يعتبرها في عداد الموتى ، ولم يخسر شيئا بموتها" **فكرت انه كان يوم أحد انقضى وان أمي كانت الآن مدفونة ،وأنني سأستعيد عملي وان شيئا بالإجمال لم يكن قد تبدل** "[3].أما على الصعيد النفسي يعيش إغتراب اجتماعي ونفسي يتميز بأحاسيس جامدة ، يشعر من خلاله بعدم انتماءه إلى مجتمعه وما يسوده من مبادئ وقيم فيفضل الانكفاء و الانعزال .

إن استحضار مورسو في الرواية كان ضرورة لابد منها فهو مفتاح القراءة للرواية ،إذ لا يمكن أن نفهم أبعاد الرواية بأحداثها وشخصياتها و خصوصا الجريمة التى أرتكبها مورسو"**مات القاتل من زمان ومن زمن طويل رحل عن هذه الحياة، رحل إلا عني**"[4]." **لاشك أنك قرأت القصة كما رواها الرجل الذي كتبها ، يكتب ويجيد الكتابة ، تبدو كلماته حجارة نحتث بإزميل الدقة ،**

1- ألبير كامو الغريب ، تر: عايدة مطرجي إدريس ،دار الآداب ، بيروت ، لبنان ، 2013، ص24.

2- المصدر نفسه ،ص 09.

3- المصدر نفسه، ص34.

4 - كمال داود ، معارضة الغريب ،تر:ماري دويهي وجان هاشم، دار البرزخ ،ط1، 2015، ص 8.

بطلك شخص قاس ودقيق في إختيار التفاصيل"[1] فعن أي قاتل يتحدث ؟ وأين هو القتيل ؟ وما حكاية هذه القصة التي كتبت بدقة؟ هذه الأسلة تطرح عند قراءة "**مورسو،تحقيق مضاد**" وغيرها كثير ،لا توجد إجابتها إلا في رواية الغريب، لذلك تفرض علينا كيفية قراءتها وذلك باستحضار رواية " الغريب " في الذهن أثناء القراءة ، بمعنى قراءتها من منظور مزدوج ." **أمي اليوم مازالت على قيد الحياة، صامته. لا تنبس ببنت شفه** "[2]."**اليوم، ماتت أمي أو ربما ماتت بالأمس، لست أدري**"[3] . بمعنى قراءة رواية كمال داود باعتبارها إعادة رواية الغريب لكن من زاوية نظر كاتب جزائري.

أما الشق الثاني من العنوان " **تحقيق مضاد**"ملابساتها، تعلق بعالم الجريمة والقضاء يهدف إلى الكشف عن الحقيقة، فثمة قضية يجب البحث في ملابساتها، ولكن هذا التحقيق الذي يحمله العنوان مضاد.بمعنى هناك تحقيق أولي سابق مختلف، وظروفه مختلفة أي البحث عن الجانب الأخر من هذه الحقيقة وعما يرويه "**ألبير كامو**" فما يرويه هذا الأخير عن الجريمة بقوله" **سحب العربي سكينه التى عرضها أمامي في الشمس (...) تمدد كياني كله وتشنجت يدي على المسدس، فاستجاب نابض المسدس**"[4]. أما الجانب الأخر من حقيقة هذه الجريمة يعرضه كمال داود في قوله "**جريمة مركبة أعزيت إلى ما لم يكن في الواقع سوى حسابات دنيئة،أراد موسى أن ينقد شرف فتاة بتأديب بطلك ، فأراد هذا الأخير أن يدافع عن نفسه فأراده على الشاطئ بكل برودة أعصاب**"[5].أي رواية ما يرويه ألبير كامو ولكن بطريقة مختلفة، وبهذا نصل إلى أن مفهوم التحقيق المضاد يطرح أمامنا مفهومين مهمين هما : الكتابة المضادة التى تولد القراءة الطاقية .

1-4- رؤية العربي في رواية " الغريب" :

إن القارئ لرواية الغريب سيلاحظ أن كلمة "عربي" تكرر ذكرها في الرواية ،دون أن تدل على شئ ذات أهمية غير ذلك الإنسان المقتول مع أنها تكررت 25 مرة .على أي أساس أستخدم ألبير كامو هذه الكلمة؟ هل للتمييز بين مجتمعين مختلفين ،فهو في الحقيقة يجسد ثنائية ضدية ينبني عليها العالم والخطاب الكولونيالي (العربي/ مورسو) أو (المُستعمِر/المُستعمَر)،فمورسو يمثل

1 - كمال داود، معارضة الغريب ،مصدر سابق ،ص09.

2 - المصدر نفسه ، ص 07.

3-ألبير كامو، الغريب ، مصدر سابق ، ص 09.

4- المصدر نفسه ، ص 77.

5- كمال داود ، معارضة الغريب ، مصدر سابق ، ص 30-31.

الفرنسي المُستعمَر والعربي المجهول المُستعمَر.ولكن ماذا يقصد تحديدا؟ هل العربي يمثل وطنا ؟ هل هوية ؟ أم ذات؟ فلفظ العربي يطلق على الجزائري وغير الجزائري .

فمدلول كلمة العربي " **في وعي الذي يضع "العربي" في موضع "الأخر" شئ في الوعي الذي يتخذ منه "أنا" وصورة مستقبلية . شيء أخر تماما وبين هذين الطرفين المتقابلين صورة متعددة " للعربي" بعضها امتداد لهذه وبعضها فروع من تلك**"[1]. فقيمة الفرنسي وسلطته لا تحقق إلا بوجود الطرف الثاني وبكونه عربيا حتى يتمكن من ممارسة الهيمنة والعنف عليه كطرف ضعيف ومهمش. وهي القيمة الوحيدة التي يمكن أن نجدها لدى هذا العربي . فالرواية اختزلته إلى مكون واحد "العربي" ليس كهوية. وإنما إلى كينونة مصطنعة تتشكل من سمات ثابتة وسلبية "**إنه ذات وصفات وتاريخ مستقل ، فالعربي إنسان ولكن في نفس الوقت قضية ، فعروبة الإنسان تترب عليه مسؤولية تجاه نفسه تجاه أمة عصره**"[2]. أن تدرك أن العروبة هوية تنطوي على الوحدة ولكن من وجهة نظر الخطاب الاستعماري تتحول الهوية إلى كينونة وممارسة لطبقية والعنصرية التى يمارسها الرجل الأبيض الأوروبي "**عربي، هل تعلم ؟ لم أحس يوما أنني عربي،غنها صفة تشبه وضع الزنوج التى لا وجود لها إلا في نظر الرجل الأبيض**"[3]. فلابد من نظرة الفرنسي حتى يكون موت الأخر عربيا مقتولا ، فالعربي مجرد إسقاط لصفة عنصرية أنتجتها المخيلة الأوروبية " **وما يعنينا هنا الممارسات الاستعمارية التي استفادت من الخطاب العرفي للهيمنة ، وهي مؤشر على قدرة خطاب ما بعد الكولونيالية على تفعيل قراءات جديدة للأدب. خاصة لأعمال منتهية ومنجزة دلاليا**"[4] . إذ تختزل الهوية في كلمة واحدة "العربي" وهي ليست إلا ما تعكسه نظرة الفرنسي الكولونيالي من تصورات و تمثيلات.

فلا يمكن تفسير الكلمة خارج إطار المنظور الكولونيالي" **منذ قرون والمستوطن يفرض قدره مطلق الأسماء على ما يستملكه ويشجبها عما يزعجه ، فإذا سمى أخي "العربي" فذلك لكي يقتله كما يقتل الوقت**"[5]. و يؤكد كمال داود على هذه الفكرة بقوله "**كان لابد إذن من نظرة بطلك**

1- محمد عابد الجابري ، مسالة الهوية العروبة والإسلام والغرب، مرجع سابق ، ص08.

2- عفيف البويني ، في الهوية القومية العربية ، ضمن سلسلة كتب المستقبل العربي،الهوية وقضاياها في الوعي العربي المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، لبنان ،ع68، ط1، 2013، ص55.

3- كمال داود ، معارضة الغريب ، مصدر سابق ، ص 84.

4-– رامي أبو شهاب، الرسيس والمخاتلة، خطاب ما بعد الكولونيالية في النقد العربي المعاصر النظرية والتطبيق،ص 77.

5- كمال داود ، معارضة الغريب ، مصدر سابق، ص 23 .

كي يصبح أخي "العربي" ويموت بسبب ذلك"[1].فالعربي في نظر الفرنسي يستبيح للقتل بكل سهولة، فهي إذا صفة عنصرية لتبرير فعل استعماري وهذا ما يحيل إليه كمال داود في الرواية" **ألا ترى في ذلك تنكرا لتعسف قاهر؟ما إن أطلقت الرصاصات حتى إنكفأ القاتل ،وذهب اللغز المحير،معتبرا إياه أحق بالاهتمام من حياة العربي**"[2]. ويعتبر العربي عضو في قومية أو ثقافة لا أكثر،تلتصق به هذه الكلمة تميزا، فهارون رفض في الأخير أن يكون أخاه عربيا وذلك للاعتبارات السالفة الذكر "**أنا شقيق موسى أو شقيق لا أحد مجرد شخص مولع بالكذب اجتمعت به لملء دفاترك**"[3].

إن العربي صفة عنصرية تهدف إلى نسف الهوية الحقيقية والانتماء القومي والوطني لأخيه موسى، فقد شاء ألبير كامو أن يكون نكرة ، فلم يسمه ولم يصنع منه حتى شخصية روائية عابرة ، بل اكتفى بجعله ذريعة لكي يرتكب بطله جريمة مجانية لا لشيء فقط لكونه عربي

2- إستراتيجية القراءة في رواية " ميرسو ، تحقيق مضاد " (معرضة الغريب)

2-1- القراءة الطباقية lecture superposition :

أنتجت الدراسات ما بعد الكولونيالية مفهوما جديدا لقراءة الرواية ما بعد الكولونيالية تخترق نظام القراءة الواحدية للنصوص التي فرضها التراث الأوروبي، وهي القراءة الطباقية التى اقترحها إدوارد سعيد والتي تعني القراءة المتزامنة في اتجاهين.قراءة الرواية الاستعمارية في ضوء رواية السكان الأصليين" **تجمع هذه القراءة بين تفكيك آليات السيطرة في الخطاب الثقافي للإمبريالية، قراءة المقاومة الوطنية للإمبريالية وانعكاسها في الثقافة**"[4]. وهي القراءة التي ستكشف التاريخ الخفي أو المجهول لذلك الماضي الاستعماري،وهذا ما تسعى إليه رواية كمال داود وهو كشف الأبعاد الاستعمارية في رواية " **الغريب**" بالموازاة مع رواية " **معارضة الغريب**".

هذا يجعل القارئ يقرأ روايتين في نفس الوقت ،"فكمال داود" و " ألبير كامو" يكتبان ضمن نفس النسق التاريخي ومن شأن هذه القراءة أن تخلق وعيا متكاملا حول الظاهرة المدروسة،كيف يتصورها الروائي الأوروبي وكيف يتصورها سكان هذه المستعمرة " **ينبغي علينا أن نملك القدرة على أن نتأمل بإمعان ونؤول تجارب متفاوتة معا لكل منها برامج ،أهدافها وتسارع في تطويرها**

1 – كمال داود ، معارضة الغريب ، مصدر سابق ، ص 85.

2 – المصدر نفسه ، ص 66.

3– المصدر نفسه ،ص 191.

4 – إدريس الخضرواي ، السرد موضوعا للدراسات الثقافية ، مرجع سابق ، ص 118.

وتشكيلاتها الداخلية الخاصة وكل منها تتعايش وتتفاعل مع غيرها "[1].فهذا المنظور المزدوج يحرر الدلالات من قيود القراءة الواحدية.

إن رواية "معارضة الغريب " في طريقة قراءتها تكشف قصر القراءة الواحدية لرواية "الغريب" وبهذا فنحن بحاجة غلى منظور أخر، هو المنظور الجزائري من خلال رواية أخرى تبرز ما خفي أو توارى أو قمع في روايته.

" مورسو" في رواية الغريب يقتل عربي دون دافع أو سبب ، يتعرض لمحاكمة عبثية تدينه على سلوكه اتجاه وفاة أمه، ولم تدنه على ارتكاب جريمة مع توفر الأدلة الدامغة لجرمه، فهذه الجريمة من منظور استعماري ،كان حمل صفة العربي كافية لإسقاط الحكم عنه وأعزيت إلى تأثير الطبيعة على "مورسو"." **وهكذا أيها السادة لقد رسمت أمامكم خط الأحداث الذي قاد هذا الرجل إلى القتل بكل تبصر ومعرفة ،وأنا ألح على هذا، لأن القضية ليست قضية قتل عادي، فعل غير واع تستطيعون أن تعتبروه مخففا بسبب الظروف**"[2].أما بالنسبة لكمال داود فهي قضية دفاع عن الشرف مات من اجلها موسى، وان القاتل في حالة دفاع عن النفس" **أراد موسى أن ينقد شرف الفتاة بتأديب بطلك ، وأراد هذا الأخير أن يدافع عن نفسه** "[3]. وبهذا يبني الكاتب الرواية على حضور صوت الغريب بحيث يبرر لبطله فعل الاعتداء وهو الدفاع عن الشرف ويبرر لبطل ألبير كامو بالدفاع عن النفس " **ومن هنا كان إفساح المجال لأصوات الآخرين بالظهور لا ينطوي على إزاحة الصوت المهيمن وإقصاء . بل إن جميع هذه الأصوات يجب أن تقرأ معا في حوارية متبادلة**"[4]. "**الغريب**" قرأت في الكثير من الدراسات وخصوصا شخصية مورسو كونها تمثل المذهب العبثي للأدب، ولكن هذا غير كفيل بفهمها من وجهة نظر الطرف المهمش في الرواية نفسها .

وهذا هو الخط الروائي الذي نسج عليه كمال داود روايته فقراءة رواية " مورسو تحقيق مضاد" لا تلغي هوية النص الأصلي أو الكاتب "**صحيح أن مورسو يقتل عربيا،بيد أن هذا العربي لا اسم له ، ويبدو دونما تاريخ ، دع عنك أن يكون له أم أو أب ، وصحيح ان العرب يموتون بالطاعون في وهران ، بيدا أنهم دون أسماء كذلك (...) غير أنني أصر على أن المرء يجد في روايات كامو ما ظن ذات يوم أنها نقيت منه : تفاصيل عن ذلك الفتح الإمبريالي**

1– إدوارد سعيد ، الثقافة والإمبريالية ، تر:كمال أبو ديب ،دار الآداب ، بيروت ، لبنان ، ط4، 2014، ص101.

2 – ألبير كامو ، الغريب ، مصدر سابق ، ص 123.

3– كمال داود ، معارضة الغريب،مصدر سابق ، ص 31.

4 – نادر كاظم تمثيلات الأخر ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2004، ص 450.

الفرنسي بشكل مميز الذي بدأ عام 1830، مستمرا خلال حياة كامو ومسقطا إلى الصميم نسيج النصوص وتأليفها"[1]. فتاريخ الاستعمار الفرنسي الذي أخفاه ألبير كامو في الغريب يعيد كمال داود إحياءه " **لو لقيتني قبل عشرات السنوات لكنت قد أخبرتك رواية البغي/ الأرض الجزائرية و المستوطن الذي يعتدي عليها بالاغتصاب والقهر المتكررين** "[2].

فمحاكمة مورسو على قتل العربي يتحول مسارها إلى جريمة أخلاقية وهذا ما تتهمه به المحكمة "**إني أتهم هذا الرجل بأنه دفن أمه بقلب مجرم**"[3].وهذا يجعله يستحق العقاب في نظر المحكمة.

بالإضافة إلى أن الرواية جردت هذا العربي من هويته وانتماءه" لا اسم ، لا صوت ، لا ذاكرة" فالرواية بها شخصية جزائرية باعتبار أحداثها وقعت في الجزائر، والقتل في فترة الاحتلال الفرنسي جائز وكل ما يمكن أن يميزه هو كلمة "العربي" عن بقية الشخصيات الروائية والذي لا يحتاج ألبير كامو لتعريفهم ، فهم ذوي أصول فرنسية معروفة . والنسبة إليه هم الأصل والعربي هو الدخيل " **قال ماسون لريمون شيئا لم أسمعه جيدا، ولكنني لمحت في الوقت نفسه ، في أقصى طرف الشاطئ عربيين يرتديان الثوب الكحلي السميك ويتقدمان في اتجاهنا** "[4]. ومن هنا يبرز دور الرواية الجزائرية في فترة الاستقلال، وهو أن نعيد قراءة وكتابة هذا التاريخ من منظور ذلك العربي أي منظور الضحية ، وهو كشف المستور.

وندخل في قراءتنا لهذه الرواية "**عمليتين ،العملية الإمبريالية، وعملية المقاومة لها.ويمكن ذلك بتوسيع قراءتنا لنصوص تشمل ما تم ذات يوم إقصاءه بالقوة – وهو في رواية الغريب مثلا – التاريخ السابق بأسره لاستعمار فرنسا وتدميرها الدولة الجزائرية ، ثم الظهور اللاحق لجزائر مستقلة اتخذ منها كامو موقف المعارض** "[5]. حيث تبرز مرحلة الوعي لدى الشعوب المستعمرة ،فظهرت سردية مضادة تعمدت الاشتغال على الرواية الكولونيالية والرد عليها، فهذا التجاهل لشخصية العربي والتاريخ الاستعماري المغيب يجعل منهما حبكة فنية لرواية بعد سبعين عاما من تناولها قضية العربي ،فيتحول هذا الأخير إلى شخص معروف وهو أصل الرواية " **كان أخي**

1 – إدوارد سعيد ، الثقافة والإمبريالية ، مرجع سابق ، ص 136.

2 – كمال داود ،معارضة الغريب ، مصدر سابق ، ص 88.

3 – ألبير كامو، الغريب ، مصدر سابق ، 119.

4 – المرجع نفسه ، ص 70.

5– إدوارد سعيد ، الثقافة والإمبريالية ، مرجع سابق ،ص 135.

موسى ، كان له اسم ، لكن ظل يعرف بـ"العربي" إلى الأبد.الأخير على اللائحة"[1].وهذا ما تعمد ألبير كامو إقصاءه ولذلك علينا "**قراءة النص بفهم ما هو مشبوك حين يظهر مؤلف ما"**[2]. إضافة إلى ذلك تجعلنا الرواية نعيد فهم الدور الذي لعبته والدة مورسو في حصوله على حكم الإعدام على عدم اكتراثه لها، والدور الذي لعبته أم هارون التى كرست حياتها لتنتقم من قاتل موسى ، فتفرض على هارون حلة من تقمص لشخصية لأخيه" **فرضت علي أمي واجب التقمص فحالما متن عودي راحت تلبسني ثياب المرحوم"**[3]. وعامل محفز علي القتل "**وأنا بيدي التي لم تنزل بعد الجريمة، وأمي وإصرارها على ثأر شنيع حققته أخيرا"**[4].

أي التعامل مع التاريخ الروائي بطريقة جديدة "**لذلك يحمل كتاب العالم الثالث في مرحلة ما بعد الإمبريالية ماضيهم في أعماقهم ندوبا لجراح مذلة وتحريضا على "خلق" ممارسات مختلفة ورؤى للماضي تملك طاقة على التنقيح ، وتنزع نحو مستقبل ما بعد استعماري، وتجارب قابلة بإلحاح لإعادة التأويل والتوزيع والمركز،فيها ينطق الأصلاني الذي كان صامتا في السابق ويمارس الفعل على أرض استعادها كجزء من حركة مقاومة شاملة ومن المستعمر المستوطن،فالقراءة الطباقية إعادة قراءة الأدب الكولونيالي من جديد وتحويل مكوناته لتكون أقرب إلى روح ما بعد الكولونيالية"**[5]، فرواية " معارضة " الغريب مستوحاة و قائمة أساس على رواية "الغريب" لدرجة أنه لا يمكن قراءتها دون قراءة الغريب أولا.

2-2- السرد المضاد (الرد بالكتابة) Anti écriture:

لقد أنتجت المجتمعات ما بعد الكولونيالية آداب كثير كتبت بتأثير من الوضع الذي خلفه الاستعمار والذي كما رأينا سابقا لا يمكن لا يقرأ إلا قراءة طباقية ،إذ يصبح الاستعمار مناسبة لكينونة الرواية لتعبر هذه المجتمعات عن صوتها المهمش طوال فترة من الزمن بواسطة الكتابة "**والكتابة عمل مضاد من خلال مسعاها إلى تجاوز كل الآخرين ومحاولة نفيهم بواسطة اختلافها عنهم وتميزها عما لديهم،كما أنها عمل يتضاد مع الذات الكاتبة من حيث أن الكتابة – كإبداع- هي إدعاء كوني يفوق الذات الفاعلة وهي تمتد من فوقها متجاوزا إياها وكاسرا ظروفها**

1- كمال داود ، معارضة الغريب ، مصدر سابق ، ص 22.

2 – ادوارد سعيد ، الثقافة والإمبريالية ، مرجع سابق ص 133.

3- كمال داود ، معارضة الغريب ، مصدر سابق ،ص 54.

4- المصدر نفسه ، ص109.

5- ادوارد سعيد الثقافة والامبريالية ، مرجع سابق ، ص27.

وحدودها"[1]. فهي مدخل لتفسير طبيعة التحولات الثقافية والانتقال من حقبة إلى أخرى في مجتمعات ما بعد الكولونيالية ، والثورة على المركزية الغربية في الكتابة إذ تقوم وتفكيكها وفي الوقت نفسه تؤكد على اختلافها بواسطة الكتابة المضادة "**عبر رؤية لا تتطابق وتتساوق مع الرؤية الكولونيالية أو الاستشراقية السائدة والقارة في مجالات محفوظات الغرب،فهو- أي ذلك السرد- جزء من العملية النقدية الكبرى في تفكيك علاقة المركز-الأطراف التي هي علاقة هيمنة أولا(..) فيعاد تشكيل صورة ما سبق لها أن تكونت في ظل علاقة القوة/الهيمنة ارتباطا بمرحلة تاريخية متعينة هي المرحلة الكولونيالية**"[2]. إذ يقوم بخلخلة وتقويض الخطاب الكولونيالي الذي يحمل في طياتها ويصرح بأن الأخر عاجز وغير قادر على تمثيل نفسه ومناهضة الإمبريالية، فالسرد المضاد يعمل على إعادة تأويل النص الكولونيالي وتوزيع عناصره ، تتجاوز وتخترق حاجز الصمت الذي أطبق عليه النص الأصلاني، "**فالثقافة المهيمنة تتحدث بصوت واحد، وهي تحتكر سبل الحديث وتسعى إلى امتلاك أدوات التخيل امتلاكا كليا، بحيث لا تتيح فرصة أي صوت أخر أن يستفيد منها في تمثيل ذاته أو في تمثيل الثقافة المهيمنة تمثيلا مضادا** "[3]. فألبير كامو قتل العربي لإسكات صوته ،وإفراغ هذه الشخصية من كل وسائل التمثيل التي يمكن أن تجعل منه عنصر مقاومة في الرواية لسيطرة الفرنسية على الجزائر، لدى " **مورسو،تحقيق مضاد**" هي شكل من إشكال الرد بالكتابة والسرد المضاد أو " **النقيض**" حيث تطلق عليه "**هيلين تيفين**" **بـ** " **الخطاب النقيض للتراث المعتمد**" **الذي يهدف إلى تعرية وتفكيك القناعات الأساسية التي يتبناها نص معتمد Comicial معين من خلال إيجاد نص نقيض Conter texte يحتفظ بالعديد من الدوال المميزة لنص الأصلي تغيير بنيات القوة التي يقوم عليها هذا النص ، وهو ما يتم غالبا عادى نحو مجازي allegorically**"[4]. ففكرة النص النقيض تقوم هي إعادة تمثيل الدوال المميزة للنص الأصلي ، لكن باستهداف (بنيات القوة) التي تميزه أي مصدر تلك الرؤية المتعالية في النص الكولونيالي ،ففكرة الغريب لألبير كامو هي العربي والجريمة التي تشكل مرتكز الأحداث والشخصيات ،"ميرسو، تحقيق مضاد" نهضت على بنية سردية مشابهة لبنية رواية الغريب ولكنها

1- عبد الله محمد الغدامي ، الكتابة ضد الكتابة ، دار الآداب ،بيروت ، ط 1 ، 1991، ص 8.

2- سعد محمد رحيم ، أدب ما بعد الكولونيالية ، الرؤية المختلفة والسرد المضاد، الحوار المتمدن ، ع 1303، 2005/08/31 http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=44341

3- نادر كاظم ، تمثيلات الأخر ، مرجع سابق ،ص 450.

4 - هيلين جلبرت وجوان تومكينز ،الدراما ما بعد الكولونيالية ، مرجع سابق ، ص 22-23.

في الوقت ذاته تناقضها، فرواية كمال داود تختلف عن التي كتبها ألبير كامو والمتمثلة في مقتل العربي علي شاطئ البحر، وهي الحكاية التى لم تستطيع الضحية سردها ،وأقصتها رواية ألبير كامو ، يسردها كمال داود من زاوية نظر الضحية او على الأقل من زاوية نظر أخ الضحية لأجل أن يتعرف العالم على الحقيقة المغيبة والتفاصيل التي ظلت مجهولة خاصة فيما يتعلق بهوية الضحية وتفاصيل الجريمة "**فالأول يتقن السرد حتى نجح في التعتيم على جريمته بينما الثاني مجرد بائس أمي بدا أن الله خلقه فقط كي ترديه رصاصة ويعود إلى التراب ، وهو شخص مغمور ، مر مرور الكرام على غفلة من الزمن لم يدون اسمه**"[1]. فهذا هو المنطق الذي تخضع له رواية الغريب "**يجري تعريته وكشف هشاشة أسسه خلال السرد الأخر/المغاير ...ان احكي الحكاية بطريقة أخرى ... بمنظور أخر ... بمسار جديد، وتعامل مع اللغة مبتكر و صادم أو بعبارة أخرى محاولة كسر الغرب لحق السرد.. إضاءة جانب معتم سعى الغرب بوجهه الإمبريالي لإبقاءه معتما،أو لم يكن من سبيل حينه لإضاءته**"[2]. وهذا ما يؤكده كمال في الرواية " **صار القاتل معروفا وقصته المكتوبة ببراعة هي التى حفزتني على تقليده بل معارضته**"[3].أي إعادة كتابة واقعة سردية " **يفترض إذا إعادة كتابة هذه القصة باللغة نفسها لكن من اليسار**"[4].

تبدأ الرواية من خلال مقدمة منسوجة على منوال رواية الغريب ،حيث يقول هارون عند افتتاحه الرواية " **أمي اليوم مازالت على قيد الحياة ،صامته ، لا تنبس ببنت شفة علما أن في جعبتها الكثير لتقوله،بعكسي أنا، فلشد ما كررت هذه القصة أراني بالكاد أتذكرها**"[5].هذه المقدمة نجد أن لها نفس الصياغة رواية الغريب "**اليوم ماتت أمي، لست أدري ،أو ربما ماتت أمس لست أدري**"[6]. في بداية الروايتين وصف لحال الأم، فمع كمال داود هي حية وفي حالة حياد ،أما مع ألبير كامو فهي ميتة.

كما يقارن بين شخصية "مورسو" مرتكب الجريمة التي تملك قوة اللغة والسرد اللتان جعلتا العالم ينسى تلك الجريمة و التفكير أمور أخرى مثل مدلولاته الفلسفية ،وشخصية العربي التي لا

1- كمال داود ، معارضة الغريب ، مصدر سابق ، ص07 .

2- سعد محمد رحيم ، آداب ما بعد الكولونيالية الرؤية المختلفة والسرد المضاد ، مرجع سابق.

3 – كمال داود ، المصدر السابق ، ص 08.

4-المصدر نفسه، ص 14.

5-المصدر نفسه، ص 07.

6 -ألبير كامو ، الغريب ، ص 09.

صوت لها، وصفها السارد بشكل ساخر وأنها خلقت لأجل القتل فضلا عن ذلك فهي شخصية مجردة من كل شيء، يسترجع كمال داود صوتها في الرواية فيجعل منها كيان مستقل بذاته " **كان اسم أخي موسى كان له اسم،لكنه ظل يعرف بالعربي وإلى الأبد، الأخير على اللائحة**"[1]. هذا الوجه الخفي من القصة استرجاع الهوية (الاسم ،العائلة ، الوطن).

فالسرد من وجهة نظر الضحية هو أن الأم مازالت على قيد الحياة ، وانبعاث الضحية من جديد بعد سنوات من الموت ، لذلك يفترض أن البداية الحقيقية للرواية تنطلق من هنا "**لا تبدأ قصة هذه الجريمة إذن بالجملة الشهيرة "اليوم ماتت أمي ، بل بما لم يسمعه أحد قط، أي بما قاله أخي موسى لأمي قبل أن يخرج في ذلك النهار(سأعود أبكر من العادة)**"[2].إذ يقيم علاقة تناظرية بين البداية التي تنطلق منها قصة الجريمة إذ تنطلق مع مورسو من لحظة موت أمه ، أما مع هارون من اللحظة التي خرج فيها موسى من المنزل،إذ يطرح رؤيا تأويلية للرواية متشابكة من منظورين مختلفين،منظور القاتل الفرنسي ومنظور المقتول العربي،إذ يقحم تعديلات بنيوية لدحض مروية الأخر وذا يشير إلى أسلوب ما بعد حداثي يسمح بالاستحواذ على النص الأصلي وإعادة إنتاجه بمرئيات مقاربة مختلفة لها ما يبررها فنيا وموضوعيا. و كل ذلك من أجل تجذير الوعي بالمسألة الجزائرية .

وبين سرد والقتل علاقة وطيدة في الروايتين،حيث تقوم رواية الغريب على مشهد قتل مورسو للعربي والتي تحدث انعطافا خطيرا في حياة مورسو ، وعلامة فارقة تؤكد أكثر لا مبالات ذلك الفرنسي بسبب وفاة والدته " **ما إن ماتت والدة هذا القاتل ، حتى بات بلا وطن ، وغرق في البطالة والعبثية** "[3]."**أنت تعرف أن في جريمته عدم اكتراث مهيب حال بعد دون أي محاولة لاعتبار أخي شهيدا**"[4]، ورواية " تحقيق مضاد هي البحث عن القاتل والثأر للمقتول.

" **أني أريد إحقاق العدالة ، قد يبدو هذا سخيف مني في عمري هذا ... لكنني أقسم لك أنها الحقيقة ، وما أعنيه بذلك عدالة التوازنات لا عدالة المحاكم ، ثم إن لي سببا أخر ، فأنا أريد أن أمشي دون شبح يلاحقني**"[5].إعادة سردا لغريب من منظور معاكس وموازي لها في

1- كمال داود ،معارضة الغريب ، مصدر سابق ، ص22.

2- المصدر نفسه ، ص 19.

3-المصدر نفسه ، ص 11.

4- المصدر نفسه ،ص 12.

5- كمال داود ، معارضة الغريب ، مصدر سابق ، ص12 .

مفارقة أدبية للنص الأصلي وذلك بغية الثأر للعربي والتخلص من شبحه لأن الكاتب كان يعتبر العربي جزائريا وهي مسألة وطنية وقومية تحرضه علي رد الإعتبار ولهذا فمقتل الفرنسي يصبح ذا قيمة في إحقاق التوازي بين النصين القتل بالقتل ، والأدب بالأدب .

فكمال داود يعيد تمثيل سيناريوهات مقتل موسى وتدبير مشاهد قتل مضادة للجريمة الأصلية،وهي تتمحور في عدة نقاط هي:

كون مورسو يموت من أجل قضية شرف ، لا قضية إنتقام من عاهرة كما صورتها رواية الغريب " **بطلب من قواد يدعى ريمون ، كان حاقدا ريمون على إحدى المومسات ،دبح بطلك رسالة تهديد ، وساءت الأمور ويبدو أنها حلت بجريمة ، قتل العربي لأن القاتل اعتقد أنه أراد الانتقام للمومس** "[1].أما ما تطرحه رواية "مورسو، **تحقيق مضاد**" **فهو** " **اراد ان ينقد شرف الفتاة بتأديب بطلك ،و أراد هذا الأخير أن يدافع عن نفسه فأراده على الشاطئ بكل برودة أعصاب**"[2].

أما المحاكمة العبثية التى تدين مورسو بقرائن ظرفية وعاطفية وليس بالأدلة الدامغة لقتله العربي ، ينتزعها كمال داود ويعيد طرحها ، فقتل هارون لجوزيف يحقق فيه من طرف جبهة التحرير الوطني ،إذ تعتبره مجرما لقتله الفرنسي أولا ، وعميلا و خائنا ثانيا لأن التوقيت لعب دورا حاسما في تحديد موقع هارون ضمن الجريمة " **كان يفترض بك قتل الفرنسي معنا خلال الحرب،لا هذا الأسبوع** [3]"."**هناك فرق بين القتل والحرب وأننا لسنا قتلة بل محررين**"[4]." **قبل الخامسة من تموز، نعم قبل،ليس بعد**"[5]. فلم تتم محاكمته بسبب قتله الفرنسي بعد الاستقلال بساعتين ، بل بسبب عدم مشاركته في الحرب مع الجبهة ، فهناك محاكاة واضحة وتشابه كبير بين الروايتين ، وأن اختلاف الحكم الذي قررته تلك المحاكمتين يحدث تغييرا لدى الشخصيتين،فمعاقبة مورسو بالإعدام " **الرئيس قال لي بلهجة غريبة ، إن رأسي سيقطع في ساحة عامة باسم الشعب الفرنسي**"[6]، يجعل مورسو يشعر بالذنب لقتله العربي ؛ ورفضه أداء الدور الذي ألبسه المجتمع " **لم تكن عدالة البشر في رأيه شيئا، وكانت عدالة الله هي كل شيء،فقلت ملاحظا أن الأولي هي التي حكمت علي، فأجابني أنها، مع ذلك،لم تغسل إثمي،**

1 – كمال داود ، معارضة الغريب ، مصدر سابق، ص87.

2 – المصدر نفسه، ص 31.

3 – المصدر نفسه، ص 149.

4– المصدر نفسه ،ص 150.

5– المصدر نفسه ،ص 150

6– البير كامو ، الغريب ، مصدر سابق ، ص131.

فقلت له إني لم أكن أعرف ما هو الإثم ،وكل ما علموني إياه اني كنت مذنبا، وكنت أدفع ثمن ذنبي،ولم يكن بالمستطاع أن يطلب مني أكثر من ذلك"[1]. أما هارون فيطلق سراحه في النهاية وهذا ما يثير غضبه ، لان هذه المحاكمة ليس فيها أي نوع من العدالة ، فهو في النهاية ارتكب جريمة قتل عمدا ويريد أن يعاقب عليا حتى يصبح لذلك الانتقام أهمية وأن ما قام به هو عمل بطولي ."**سيطلقون سراحي من دون تفسير وأنا أردت أن أحاكم ، أردت تخليصي من هذا الظل الثقيل الذي يحول حياتي ظلمات، شعرت بالجور حين أخلي سبيلي هكذا من دون أن يوضحوا لي ما إذا كنت مجرما أو قاتلا ، قتيلا أو ضحية ، أو بكل بساطة أحمق غير منضبط ، أهنت حين تعاملوا مع جريمتي بخفة (...) أسقطوا من قيمة فعلتي،أهدروها ؟ ! إن مجانية مقتل موسى لم تكن مقبولة وها أنهم قابلو ثأري بالبطلان نفسه**"[2]. وهكذا يتحول العقاب مع كمال داود من حكم بالإعدام إلى رحلة من تأنيب الضمير، وهذا يفتح المجال لهارون ليلتفت إلى أحداث أكثر أهمية بعد الاستقلال وخروجه من السجن.

إن المواجهة بين مورسو وقسيس السجن يخلق كمال داود علاقة بين شيخ المسجد وهارون تجعل هذا الأخير يحاول فهم علاقته مع الله والبحث عنها" **لست أعلم لماذا في كل مرة يطرح فيها أحد ما سؤالا عن وجود الله،يلتفت إلي الرجل منتظرا الجواب،اطرحوا السؤال عليه هو، مباشرة**"[3].فكان بالنسبة لهارون لم يكن الدين يلعب دورا مهما في حياته كمال هو الحال بالنسبة للكثير من الجزائريين ، خصوصا وانه لا يقوم بأداء فرائضه وهو في سن بحجة لأن يكون اقرب من أي وقت أخر إلي الله يترجم هذه العلاقة التي هي مطابقة تماما لعلاقة مورسو بالمسيح باقتباسه مقطعا كاملا من هذه المواجهة " **قالي وهو يضع يده على كتفي، لا يبني إنني معك ولكنك لا تستطيع أن تعرف ذلك، لأن لك قلبا أعمى، سأصلي من أجلك**"[4].

لقد نجح كمال داود في ربط المقاربات والمفارقات بين الروايتين ، فقد أعاد سرد وقائع ، وسرد تاريخ وحقائق غيبت وهمشت لفترة من الزمن ، فعرض قصتين وقتيلين من وجهة نظره كممثل للرواية ما بعد الكولونيالية ، والرواية الكولونيالية التي يمثلها ألبير كامو ، وترك الحكم النهائي فيما بينهما للقارئ الذي عليه أن يقرر أيضا حيال هذه المسألة " **هل تناسبك قصتي، هذا**

1- ألبير كامو ، الغريب ، مصدر سابق ،ص 144-145.

2- كمال داود ، معارضة الغريب ، مرجع سابق ،ص 152.

3- المصدر نفسه ، ص 190.

4 - ألبير كامو ، الغريب ، مصدر سابق ،ص 147.

كل ما يمكنني أن أقدمه إليك ، هذا كلامي ،إما إن تقبله أو ترفضه .أنا شقيق موسى أو شقيق لا أحد، مجرد شخص مولع بالكذب اجتمعت به لملء دفاترك... الخيار لك صديقي"[1]. فالرواية كتبت ، والوقائع عرضت ، والحقائق كشفت ، ولم يبق إلا الحكم النهائي " **مجهولان ،وقصتان على شاطئ لا نهاية له ، أيهما أصح ؟ سؤال جوهري ، عليك أنت أن تبث"**[2].

ونظرا لطبيعة الإشكالات التى طرحتها الرواية حول الأخر، الهوية، الحرب، تاريخ الاستعمار الفرنسي ، العلاقة بالمرأة ، الهوية كان كمال داود يتوقع أن تحدث هذه الرواية الضجة نفسها التي أحدثتها لحظة إعدام مورسو "**أنا أيضا أود أن يكون المتفرجون عليا كثر وأن تكون كراهيتهم ضارية"**[3]. ليختم الرواية بنفس العبارة التي ختم بها ألبير كامو روايته.

2-3 الكتابة بلغة الأخر L'écriture dans une langue autre :

الرواية كجنس أدبي مستقل تتميز بشكلها ووجودها المتميز،ولكل رواية طابعها الخاص ولغتها الخاصة ، فاللغة هي القاعدة الأولي في تكوين وتطوير الرواية " **إن للغة قدرة ذهنية تتكون من مجموعة من المعارف والأصوات والقواعد التي تنتظمها جميعا، تتولد وتنمو في ذهن الفرد ناطق اللغة أو مستعملها فتمكنه من إنتاج عبارات لغته كلاما أو كتابة ، كما تمكنه من فهم مضامين ما ينتجه افراد مجموعة من هذه العبارات ، وبذلك توجد الصلة بين فكرة و أفكار الآخرين"**[4]. فاللغة إلى جانب أنها وسيلة للتعبير والتواصل ن فهي تعكس روح الشعب والحضارة ن وهي بهذا تشكل جزء من التفكير لا التواصل ، والمحافظة علي الهوية الخاصة لكل أمة و خاصة إذا دون هذا الأدب باللغة الأم ، وهذا ما يطرح علامات استفهام كثيرة بالنسبة حول الرواية التي كتبت بغير لغتها.

بالنسبة للشعوب التي استعمرت لفترات طويلة من الزمن حيث جردت من كل مكوناتها الحضارية والتي في مقدمتها اللغة ، كما هو الحال بالنسبة للجزائريين اللذين سلبت منهم اللغة العربية ، وقد رأينا فيما سبق كيف عملت السياسة الفرنسية علي تثبيت لغتها في أوساط الجزائريين وخصوصا في أوساط المثقفين والنخبة كجزء من إستراتيجية الهيمنة الفرنسية علي الجزائر المستقلة.

1- كمال داود ،معارضة الغريب ، مصدر سابق ،ص 191.

2- المصدر نفسه ، ص 192.

3- المصدر نفسه ، ص 192.

4- أحمد محمد معتوق ، الحصيلة اللغوية، المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب، الكويت، العدد212، فيفري 1978،ص 29.

ولعل أهم ما يميز الكتابة الروائية الجزائرية ، ظاهرة الكتابة بلغة المستعمر فقد ظهرت طائفة من الكتاب الروائيين حملت علي عاتقها إسماع صوتهم الجزائري إلي الأخر الفرنسي عن طريقه لغته عبر نص روائي متكامل فرض نفسه في الساحة الروائية منذ ظهوره وخصوص كتاب الجيل الأول مثل : مولود فرعون ،أسيا جبار ، رشيد بوجدرة .....إلخ .كما عبروا عن انبهارهم الشديد بالغة الفرنسية ، حيث أطلق كاتب ياسين مقولته الشهيرة " **اللغة الفرنسية غنيمة حرب** ". فهي بالنسب إليه إرث استعماري لأنه عايش الاستعمار الفرنسي وتحمل تبعاته.

ورواية كمال داود " **مورسو تحقيق مضاد** " كغيرها من الروايات التي كتبت بالغة الفرنسية تفتح الجدل حول الكتابة بلغة الآخر،لماذا كتبت باللغة الفرنسية؟ وما هي الضرورة التي جعلته يرد بلغة المستعمر؟ أليس بإمكان اللغة العربية أن تستوعب الخط الروائي الذي نسجه كمال داود بالفرنسية ؟....إلخ .

منذ البداية حدد كمال داود علاقته باللغة الفرنسية حيث يقول :"**صار القاتل معروفا ، وقصته المكتوبة ببراعة حفزتني علي تقليده، قل بل معارضته.كتب الكاتب بلغته. ولذلك قررت أن أحدو حدو الناس في هذا البلد بعد استقلاله :اعني استعادة حجارة منازل المستوطنين سابقا لأبني بها منزلا لي، لغة لي.إن كلمات القاتل وعباراته هي ملكي السائب.ففي هذا البلد كلمات مبعثرة لم تعد ملكا لأحد نقرؤها علي واجهات التاجر القديمة، وعلى الأوجه لعلها تحولت إلى لغة هجينة التي خلفها لنا الاستعمار** "[1].

فاللغة الفرنسية إذا هي ملك سائب للجزائريين وحق مشروع الاستغلال،كغيرها من المخلفات التي تركها الاحتلال عقب الاستقلال،وهو بذلك يرمي بمفهوم الفرنسية غنيمة حرب لكاتب ياسين،ومفهوم الملك السائب في الجزائر نعني به الأملاك التي تركها المستوطنون حين رحلوا وجعلناها خاصيتنا ، لأنها في الأصل هي حق سلب بالقوة والعنف، فبالنسبة للجزائريين استعادة المنازل هي استعادة للوطن وحق للجميع ،أما اللغة فهي ملكية خاصة،لا يمكن للآخرين حق امتلاكها ، بعد أن فقدت اللغة العربية في هذا البلد قيمتها ولم يعد أحد يسعى إليها فلا تظهر إلا علي واجهات المحلات بكلمات مبعثرة أو في الكتب القديمة ، فقد أصبحت هجينه وهي أمر طبيعي لأنها من نتائج الاستعمار ،فقد عمل الاستعمار علي السيطرة علي المجتمع الجزائري لغويا من خلال المدارس ، ومناهج التعليم ، والمؤسسات الرسمية لدي ليس من الغريب العثور علي

1 – كمال داود، معارضة الغريب ، مصدر سابق ص 8.

مزيج بين اللغة العربية والفرنسية لدي اغلب الجزائريين . "**عندما يهرب المستوطنون يخلفون لنا ثلاث أشياء: العظام والطرقات و الكلمات** "[1] . فاللغة إرث استعماري وهي الشيء الوحيد الذي يحسب لتاريخ الاستعمار الفرنسي في الجزائر لنا أحقية استغلالها لا امتلاكها وهو ما عبر عنه "**جاك دير يدا Jacques Derrida** " عند حديثه عن علاقة الامتلاك اللغوية حيث يقول " **اللغة ليست ملكا طبيعيا له، بل إنه يمكنه من الناحية التاريخية،أن يقوم باغتصاب هوية ثقافية – طبعا بالمعنى الكولونيالي (الاستعماري)– ليعمد بعد ذلك لفرضها و كأنها شيء يخصه**"[2]. ومن بين الأسباب التي يذكرها كمال داود كتابته الرواية بلغة الأخر وتعمله هذه اللغة " **الأمر بسيط ، يفترض إذا إعادة كتابة هذه القصة باللغة نفسها، لكن من اليمين إلى اليسار(...) فمن أسباب تعلمي هذه اللغة هو أن اروي هذه القصة نيابة عن أخي**"[3]. أولا أن الحاجة لهذه اللغة هي انه يفترض أعادة هذه القصة بالغة نفسها، وثانيا انه بحاجة إليها ليتمكن من الرد بدلا عن أخيه الميت.

إذن هناك حاجة طارئة لتعلم هذه اللغة فهي مرتبطة بحدث رمزي، وهي جريمة القتل فالعربي قتل باللغة الفرنسية في رواية فرنسية، فاللغة ضرورة وليس مجرد ترف لغوي.وعلى هذا الأساس هل اللغة هي خيار أم طارئ تاريخي فرضته قوي تاريخية منها الاستعمار ؟ وهذا ما يذهب إليه الأساتذ " **لونيس بن علي**" بقوله : " **ما تمثله اللغة الفرنسية – لغة مورسو– لهارون أنها الوسيلة التي تمنح له القدرة علي الدخول إلي عالم التاريخ،وبناء الأشياء أو بإعادة ترتيب العالم وفق الشكل الذي يرغب فيه،ليست اللغة – انطلاقا من هذا التصور– وسيلة تواصل، بل وسيلة للوجود المختلف، والخروج عن وجود سابق** "[4]. فاللغة هي التي تمنح الوجود المختلف للعربي في الرواية، فألبير كامو لم يقتل العربي كإنسان قتل جسدي فقط , بل قتله علي مستويات متعددة فقتل الهوية ، قتل اللغة (جرد الشخصية من الصوت)،" **فشخصية العربي موسى في رواية الغريب ليس سوى أكثر من قطعة معلقة في ديكور الرواية ، وظيفتها أن تبرز الوجه المتعالي في الشخصية الأوروبية ، الشخصية التي تملك اسما،ولغة،وإرادة .العربي هو الصورة**

1 – كمال داود ، معارضة الغريب ، مصدر سابق ، ص 47.

2 – جاك ديريدا ، أحادية الأخر اللغوية ، تر : عمر مهيبل، منشورات الاختلاف ، الجزائر ، ط 1 ، 2008، ص 52.

3– كمال داود ، معارضة الغريب ، المصدر السابق ،ص 14.

4 – لونيس بن علي،رواية البحث عن عدالة التوازنات، مجلة نفحة ، 22جانفي 2015www.nafhanay.com

الضرورية لإبراز التناقض الموجود بين العربي و الأوروبي ،بين المُستعمِر والمُستعمَر"[1]. فرواية الغريب تؤكد علي أن العربي مستعمر بالضرورة وكضحية هو عاجز عن الرد وهذا يبرز القوة التدميرية للاستعمار. وما تثبته رواية " مورسو تحقيق مضاد" أن التابع يستطيع ان يتكلم بلغة مستعمره ومساءلة السلطة الاستعمارية ، وتصور التاريخ المهمش بأنه جثه لدرجة انه هذه الجثة تنتهي مهمتها عند الموت،فلم نعلم ما صيرها فيما بعد ، تخرج عن صمتها لتروي تاريخها الخاص بنفس اللغة التي قتلت بها ونوع من التحرر من سلطة القهر الاستعماري وهذا ما تؤكد أنيا لومبا:"**إن اختيار اللغة لا يمثل دوما وبوضوح مواقف إيديولوجية أو سياسية، وخاصة إذا كان هذا الاختيار يهدف إلى خدمة التحرر من الاستعمار ومخلفاته ومن كافة أشكال التخلف الذاتي في مرحلة ما بعد الاستعمار التقليدي**" [2].

ويبرز كمال داود علاقة المستعمَر باللغة و واقع اللغتين العربية والفرنسية إبان الاحتلال الفرنسي "**عرفت شخصا تعلم الكتابة باللغة الفرنسية لان والده الأمي تلقى ذات يوم برقية لم يتمكن من قراءتها، كان ذلك في زمن بطلك والمستوطنين. بقيت البرقية أسبوعا تهترئ في جيبه حتى قرأها له (...) لم انس قط غيظه من نفسه ونظرته التي التمست العون مني،وفي الحقيقة هذا هو ما دفعني أيضا**"[3]. ذلك أن السلطات الفرنسية كانت تَعتبر اللغة العربية خطراً يجب محاربته لأنه الحامل والحافظ للمقومات الشخصية للشعب الجزائري لتحويل المجتمع الجزائري إلى مجتمع أمي ويمثله الوالد الذي لم يتمكن من قراءة الرسالة، ثم الانتقال في مراحل متقدمة من الاحتلال إلى الاهتمام بتعليم الأهالي اللغة الفرنسية, العربية مهمشة، والفرنسية هي السيدة. وهذا ما دعي الكاتب إلي تعلم اللغة الفرنسية والكتابة بها أيضا. فقد ينشأ كاتب ما في بيئة وفي محيط اجتماعي وتعليمي لا يتيح له سوى تعلم لغة أخرى غير لغة قومه الأصلية وهذا ما يؤكده بقوله "**آه ن بيد أنك متفاجئ بلغتي ، وكيف وأين تعلمتها ؟ في المدرسة ، وحدي ، مع مريم ، هي على نحو خاص من ساعدني في إتقان لغة بطلك(...) وهكذا أصبحت اللغة الفرنسية أداة لإجراء تحقيق بالغ الدقة والهوس**"[4]. فالفرنسية التي تعلمها كانت من المدرسة أولا وان نظام التعليم الذي خضع له هو تعليم باللغة الفرنسية بالإضافة إلى محيطه الاجتماعي . وفي ظل توفر اللغة

1 – لونيس بن علي،رواية البحث عن عدالة التوازنات، مرجع سابق .

2– أزراج عمر، الأدب المكتوب بالفرنسية أهو منفى الجزائري أم غنيمة حرب ، العرب، 9302 .2013/08/27،ص 14.

3– كمال داود ، معارضة الغريب، مصدر سابق ، ص 15.

4 - المصدر نفسه ،ص 125.

الأم اليوم ومتاحة للجميع لماذا لا يعبر بها فالكاتب في البداية قال بأنه يعارض كمال داود ، فلماذا اقتصر المعارضة علي الأحداث والسرد والحبكة الفنية للرواية ؟ لماذا لا يعارضه علي المستوي اللغوي أيضا ؟ هل يعمد الكاتب إلى ذلك للوصول إلى قاعدة أكبر ودائرة أوسع من القراء والمتلقين؟ في المجتمعات اللاحقة للاستعمار تتداخل اللغة مع الهوية والجماعات الخاضعة للهيمنة تكون الكتابة بلغة الآخر المهيمن في هذه الحالة نوعا من الانتقام، و الانتصار الرمزي للذات ضد ذلك الآخر باعتبار أن اللغة دائما ما تكون الوجه الأبرز للهوية، والدافع وراء ذلك هو أن يثبتوا للآخرين من أصحاب اللغة التي يتبنون الكتابة بها أنهم قادرون على الكتابة والتميز بلغتهم ،بل وربما التفوق عليهم.فلا أحد ينكر أن النصوص المكتوبة باللغة الفرنسية لها شعبية كبيرة من القراء وتحضي بمكانة مميزة، كما لا احد ينكر أن كمال داود قد أتقن الكتابة بالفرنسية إلي درجة التفوق.

"**اللغة تشرب وينطق بها إلى أن تتملكك يوما، إذاك تتمرس بإدراك للأمور نيابة عنك وتستولي علي الفم**"[1]. فاللغة ما إن تهيمن علي الشخص حتى تقوم مقامه في تحديد الأشياء وقيمتها بدلا عنه فهناك حالة تلبس لغوي تتملك الشخص حين يكتسب لغة ما ، فتبدو اللغة أكثر من وسيلة للتواصل وتصبح بذلك صاحبة سيطرة إلي درجة التملك وتتحول إلي أسلوب هيمنه.واللغة الفرنسية بالنسبة لكمال داود تجاوزت أن تكون مجرد وسيلة للتواصل أو التعبير عن الاضطهاد الاستعماري بل أصبحت المتنفس الوحيد للتعبير عن رؤيته المختلفة للعالم و جعلت من خياله فضاء أرحب " **اضطررت إلي تعلم لغة غير هذه اللغة لكي أصمد في هذه الحياة. هي هذه اللغة التي أتكلم بها الآن ، (...) قد منحتني كتب بطلك ولغته تدريجيا إمكانية تسمية الأشياء بطريقة أخري، وتنظيم العالم بكلماتي أنا**"[2].اللغة العربية بالنسبة إليه قاصرة وخصوصا في الجزائر لأنها مازالت إلي حد اللحظة يطغى عليها وزن المقدس والدين وإن صدق التعبير فاللغة أصبحت لغة سلطة وبالتالي فهي تنظم كلمات وأفكار الكاتب وفق سلطتها، وليس الكاتب ينظم رؤيته بواسطتها وفق سلطته هو.ويتعلق الأمر بهامش الحرية الأوسع الذي يعيشه الكاتب حين يكتب بلغة غير لغته حيث يتخفف إلى حد كبير وربما يتخلص تماما من قيود المحرمات والمحظورات التي تفرضها عليه لغة قومه ،التي قد ترتبط بقيم وأعراف لا تتسامح مع التعبير الذي يذهب إلى المدى الأبعد في ممارسة حريته دون أن يحد من ذلك أو تقف في طريقه تلك المعوقات

1- كمال داود ، معارضة الغريب مضاد ،مصدر سابق ،ص 15.

2 - المصدر نفسه ، ص 55.

التي لا يتمكن الكاتب من مغالبتها حين يكتب بلغته الأصلية،وهذا ما أثبته كمال داود في حوار مع جريدة الشرق الأوسط " **هي لغة قادرة على أن تعطيني مجالا للحلم لتعبير عن أخيلتي أكثر من العربية التي قتلها التقديس وكبلتها السياسة وأسرتها الإديولوجيات**"[1]، فاللغة الفرنسية إذن هي الحرية و الإنعتاق من القيود التي فرضتها اللغة العربية ، **وتظهر الحاجة إلى ممارسة الحرية في رغبة الإنسان في الإبداع وتحقيق إنجاز يجعله في موقع الريادة ، فهي الإرادة التي تحركه لتجعله متفوقا على الآخر**، فهو يأنس باستخدامها لا يخف انبهاره وإعجابه بها ."**لأني كنت أبقى معظم الوقت جالسا احلم ببلد يمكن فيه السير علي اليدين ، لكنني كنت بارعا، فتنتني اللغة الفرنسية، كأحجية يكمن ورائها الحل لعالمي المتنافر، أردت ترجمته لأمي، عالمي هذا،كي ما اجعله أقل ظلمة**"[2]. فهي تمكنه من ممارسة حقه في الخيال والشرود بعيدا عن أي تعقيدات،فالرقابة التى تفرض علي الأدباء والمثقفين في الجزائر تحد من مكانية التعبير بمطلق الحرية ،لأن الكتابة الأدبية تقيدها في جميع الأحوال، فليس هناك بديل إلا اللغة الفرنسية في طرح مضامين هذه الرواية التي تعطي للكاتب حرية التصرف،وعلي القدر الذي تستوعبه قدرته علي الكتابة أكثر من اللغة العربية وقادرة علي استيعاب الأشياء والفصل بينها ، فقد أتاحت الفرنسية لهم أفقاً واسعاً من الحرية وساعدته على الخروج من حصار والممنوع وعلى الانفتاح على العالم. " **هذا ما أشعرني ، لمدة طويلة ، بخجل لا يوصف،وهو ما حملني لاحقا علي تعلم لغة قادرة على الفصل بيني وبين أمي. نعم ، اللغة.تلك التي أقروها، تلك التي أتكلم بها اليوم لا لغتها. فلغتها هي ،خصبة ، منمقة ، مليئة بالحيوية ، بالقفزات والارتجالات المفتقرة إلي الدقة**"[3].

والسرد المضادة يحتاج لغة دقيقة تهتم بالتفاصيل بدقة واللغة العربية بالنسبة إليه يطغى عليها الجانب البلاغة والبيان أكثر من التدقيق، فالحضور القوي للغة الفرنسية فترة الاحتلال أضر باللغة العربية وجعلها تفقد مكانتها الأولي لدى الجزائريين وخصوصا الروائيين " **فهذه النظرة الاستعلائية أو الطبقية التي استمدتها الفرانكفونية من تكوينها تجعلها تحتقر ما كتب بالعربية – وغالبا – وتسخر من كتابات العروبيين والمعربين حتى وإن كانت هذه الكتابات جديدة ومبتكرة فهي لا قيمة لها لأنها كتبت بالعربية ولا قيمة للمؤلفات التي المكتوبة بها حتى ما إن كانت**

1– سوسن الأبطح ، كما داود:اكتب بالفرنسية لأن اللغة العربية مكبلة ولا تسمح لي بالحلم ، جريدة الشرق الأوسط .ع 13496، 10نوفمبر 2015، aawsat.com/home/article/493316

2- كمال داود ، معارضة الغريب ، مصدر سابق ، ص 160.

3 – المصدر نفسه ، ص 54.

نادرة ،في موضوعاتها وأسلوبها ومحتواها بينما من يكتب باللغة الفرنسية ،حتى وإن كانت ضعيفة أو متهافتة يجد من يصفق لها ويبارك"[1].ذلك لأن اللغة الفرنسية مازالت مرتبطة بثقافة رسمية حتى وإن كانت مكسب من حربهم الاستقلالية ضد فرسا وتمنح الكاتب الحرية المطلقة في الكتابة ، فاللغة بغض النظرة أنها وسيلة في فخ ملغم تخفي أنساق من الهيمنة."**الفرنسية ليست مجرد لغة، بل هي أيضا حاملة ثقافة معينة وبذلك فإن دفاع بعضهم عن اللغة الفرنسية هو أيضا دفاع عن الثقافة الفرنسية يريدون فرضها على شعوب المنطقة"**[2] . فالفرنسية تبقى لغة المركز الإمبريالي مقابل العربية لغة الهوامش التي أزيحت في إطار خطاب قامع، وكان علي كمال داود أن يستخدم اللغة بطريقة مختلفة، بحيث تصبح قادرة على حمل التجربة الخاصة لخطاب ما بعد الاستعمار.

2-4 إشكالية الهوية والبحث عن الذات :

رواية مورسو تحقيق مضاد قبل أن تكون إعادة سرد لأحداث قصة ،انتقام من قاتل،هي رواية تبحث أولا عن هوية وذات ذلك القتيل الذي ذكر خمس وعشرين مرة، تحت اسم "العربي" دون ذكر أي تفاصيل أخري، همشت هذه الشخصية في رواية " الغريب" علي نطاق واسع علي المستوي الفيزيولوجي ،وعلي المستوي الذاتي .إذ جعل منه ذريعة مجرد يرتكب بها "مورسو" جريمة مجانية تغير قدره."**إنها قصة جريمة ، إلا أن العربي فيها لم يقتل ،أو من طرف الأصابع .العربي هو الشخصي الثانية ،ولكنه لم يحمل اسما ولا وجها ولا كلاما** "[3]. كل ما يميزه هو تلك الصفة التي أطلقت عليه وفقط هذا ما يدل علي وجوده وبقيت علي هذا الحال مدة طويل من الزمن لا أحد يعرف عنه شيئا البته. حتى بعد استقلال الجزائر لا أحد فكر في البحث عن هوية هذه الشخصية حتى إن اعتبرناه شهيد حرب له الحق ككل شهداء الاستقلال الحق في تدوين الاسم " **لم يسمع عنه احد، حتى بعد الاستقلال ، إلى معرفة اسم الضحية ولا عنوانه ولا أسلافه، ولا حتى أسلافه المحتملين"**[4].

1- عبد الله الركيبي ، الفرانكفونية مشرقا ومغربا ، دار الكتاب العربي لتوزيع والطباعة والنشر ، القبة ، الجزائر، 153.

2- إلياس بلكا ومحمد حراز ،إشكالية الهوية والتعدد الغوي في المغرب العربي ، مرجع سابق ، ص 83.

3- كمال داود ، معارضة الغريب ، مرجع سابق ، ص 74.

4- المصدر السابق ، ص 11.

ويشدد هارون و يؤكد في مواضع مختلفة من الرواية علي أن العربي مجهول وبدون هوية أو أي معلومة تمكن القارئ من التعرف علي هويته الحقيقية " **صدمة حقيقية. ورد فيه كل شيء إلا الأساس اسم موسى ! لم أجده في أي مكان . عددت وكررت العدد، وردت كلمة (العربي) خمسا وعشرين مرة، دون أي ذكر أي اسم أول، لا شيء البتة يا صديقي.فقط الملح والانبهارات وتأملات في الحياة الإنسان المكلف تنفيذ مهمة إلهية. كتاب مورسو لم يطلعني علي أي جديد عن موسى سوى أنه كان بلا اسم ، حتى في اللحظ الأخيرة من حياته**"[1]. بالإضافة إلي ذلك أن الجثة قد اختفت تماما في الرواية ولا أحد يعمل مصيرها ولا حني شخصيات الروائية في الغريب قد تحدثت عنها أو ذكروها « **كان للجميع يد في المسارعة لإخفاء جثة الضحية وتحويل ساحة الجريمة إلى متحف وهمي.ماذا يعني (مورسو) ؟ هل تعني(Meurt seul) أي(يموت وحيدا) أم (Meurt sot) أي (مات من الهبل) أم (Ne meurt jamais) أي (لا يموت أبدا) أخي من جهته ، لم يؤت على ذكره في هذه الحكاية** "[2]. إذ كرست صورة العربي بشكل سلبي في الثقافة العالمية وهي صورة عدمية. عكس مورسو الذي أعطاه اسم يحمل عدة دلالات ." **فالهوية المعينة التي تعزل لتوظيفها في عمل معين هي،هي في معظم الحالات ،هوية حقيقة لشخص الذي يراد تجنيده**"[3]. فالعربي هو العربي ولا يحتاج أي تعريف وهو لا يمثل نفسه فقط علي الصعيد الشخصي، بل يمثل مجتمع بأكمله أي الناطقين بالعربية .

" **فمنذ قرون والمستوطن يفرض قدره مطلقا الأسماء علي ما يستملكه ويشجبها عما يزعجه.فإذا سمي أخي "بالعربي" فذلك لكي يقتله كما يقتل الوقت،في التنزه بلا هدف**"[4] .حيث تتحول الذات أو الهوية إلي فضاء لممارسة سلطة الأنا علي الأخر حيث يمثل الأخر الحلقة الأضعف في مقابل الأخر المسيطر، إذا يمارس الفرنسي علي ذلك العربي أبشع أنواع العنف إذ يمتلك مساحة واسعة من الحرية ،**تتحول أشكال ممارسة الحرية إلى سمة من سمات الهوية التي تعرف الأنا والآخر في نفس الوقت، ذلك لأن الحدود الفاصلة تكون واضحة أثناء ذلك، ويصبح التأثر والتأثير الناتج من ممارسة الآخر لحريته ومن محددات الهوية لدى الأنا.**

1- كمال داود، معارضة الغريب ، مصدر سابق، ص 174. -

2-المصدر نفسه ، ص 13.

3- أمارتيا سين ، الهوية والعنف، تر:حمزة بن قبلان المزيني ، جداول للنشر والتوزيع ،بيروت ، لبنان ، ط1، فيفري 2012 ، ص266.

4-كمال داود ،معارضة الغريب ، مصدر سابق ،ص 23.

تعيد "**ميرسو تحقيق مضاد**" رسم هذه الشخصية من جديد ، ويعود بجدور الهوية المبتورة ."**هل دونت جيدا كان اسم أخي موسى. كان له اسم ، لكنه ظل يعرف بالعربي وإلى الأبد، الأخير على اللائحة** "[1].

ويشدد هارون علي كاتبة الاسم حتى لا يمح من الذاكرة العالمية، وإنعاش الذاكرة المطمورة بالمغالطات والنسيان ويظهر في قوله: " **موسى ،موسى ، موسى... أحب أن اكرر هذا الاسم كي لا يختفيَ من الأبجديات وأنا أشدد على ذلك وأريد منك ان تكتبه بالخط العريض.ها أن رجلا استرد أخيرا اسمه الأول بعد خمسين عاما من موته و ولادته.أصر علي ذلك** "[2]. فالكتابة هي ترياق النسيان، وأداة لمقاومة الموت، فموسى ليس أكثر من ذاكرة المهمشين في التاريخ الوطني، وهدف هارون الأسمى هو أن يحفر اسم أخيه في الذاكرة ، ذاكرة الكتابة خصوصا .فإذا مات موسى فرواية ،فينبغي أن يبعث كذلك من خلال رواية. حتى يتعرف العالم علي اسمه، وماضيه وعلى تاريخه.

كما يجعل من موسي شقيقا له وعائلة " **فلنوضح بداية كنا أنا وموسي شقيقين وحيدين، ليس لنا أخت لعوب (...) كان موسى أخي البكر**"[3]. بالإضافة إلي ذلك فإن هارون يقدم ملامح موسى ." **فارع الطول ، كبير القامة نعم،إنما جسمه نحيل أعقد بسبب الجوع والقوة المتولدة من الغضب. كان وجهه حاد التقاطيع، يداه طويلتين تدفعان عني ونظراته قاسية بسبب الأرض التي فقدها الأجداد**"[4]. يرسم ملامح موسى وبأتي علي الوصف الجسماني له يتضح من هذه المتوالية من الأوصاف ذات طابع موضوعي يحيل إلي الأشجار البشرية المنغرسة بعمق في الأرض الجزائرية ، لا مجرد كائن بشري عابر على الرغم من الاستطرادات اللاحقة في تفصيل مكونه العضلي والمزاجي. فتتضح تركيبة بأنها شخصية عانت الكثير كغيرها من الجزائريين الذين عاشوا تحت وطأة الاستعمار. فقد أعطاه كمال داود ما يحق لكل إنسان : اسم وهوية وأسرة ويوميات. ويضعه في صورة نجزم أن له حياة قائمة بذاتها هي حياة شعب بأكمله هم سكان أصليون يتم تغييبهم قصدا من قبل المعمرين . يعيد "العربي المقتول" برواية كامو حيث وقع عليه ظلم وتحقير، وتعاملت معه الرواية معه كاتبه كفرد دون مستوى الإنسان. لذلك تغوص رواية داود في تفاصيل

1- كمال داود، معارضة الغريب ، مرجع سابق ، ص 22.

2- المصدر نفسه ، ص 23.

3- المصدر نفسه ، ص 15-16.

4- المصدر نفسه ، ص 16.

تحاول أن تبني ما استغنت عنه "الغريب" أو تعالت عليه. فيبني له كمال داود عالمه الخاص و محيطه الاجتماعي ويعرف تفاصيله ويقدمه للناس كشخصية حقيقية لها أبعادها الخاصة .

صحيح إنّ أزمة الهوية تُطرح عند الإنسان التابع بصورة عامّة، لكنّها تطرح بجِدّة أكثر عند الإنسان المثقّف النخبوي إذ يطرح كمال داود هاجس الهوية كل الجزائريين بقوله." **تعرف،هنا في وهران يتمسكون بالأصول (وُلد البلد) هم أبناء المدينة الحقيقيون،أبناء البلد . والكل يريد أن يكون الابن الوحيد لهذه المدينة، الأول والأخير والأعرق. هناك قلق اللقيط في هذه القصة ، أليس كذلك كل واحد يحاول أن يثبت أنه كان الأصل،هو أو أبوه أو جده ، وأنه أقام هنا وأن كل الآخرين غرباء، فلاحون لا ارض لهم ، رفعهم الاستقلال إلى مرتبة النبل كيفما كان** "[1].

تشكّل الهوية هاجسا عند الجزائريين، لان الجزائر تعرضت لاستعمارات كثيرة. حين غادر آخر المستعمرين بدا سؤال الهوية يفرض نفسه خصوصا أننا خاضعون لما يسمى الاستعمار الذاتي. هل الشعب الجزائري فرنسي من أصول جزائرية أم جزائريين ذو جنسية فرنسية ؟ إذ في الفترة اللاحقة للاستعمار تم الإجماع علي أن للجزائريين هوية عربية ، ولكن العروبة ليس هوية لان العروبة مفهوم واسع يشمل عدة قوميات تختلف فيما بينها وقد رأينا سابقا انه لكل مجتمع هويته الخاصة التي تميزه عن باقي المجتمعات، فالواقع اللغوي لا يعبر حقيقة عن الذات،صحيح أن الإرث العربي مهم في تشكيل الإنتماء القومي إلي ثقافة معينه ولكنها لا تشكل هوية بالمعني الحقيقي لهوية مستوفية جميع الشروط والهوية الجزائرية الحقيقة يمثلها ولد البلد والذين يتمسكون بالأصول والأعراق.فهناك اضطراب في الهوية الجزائرية وخصوصا بعد الاستقلال وهذا ما ترجمه هارون ويحاول أن يشرح انه في حال جرت محاولة عقلنة الهوية صارت فخا عوضا من أن تكون انفتاحا على العالم و خصوصا فيما يتعلق بالجانب الديني المتصل بالهوية .

ومشكلة الهوية التي يواجهها تتعلق بالحريات وهي مرتبطة بالدين والتاريخ الاستعمار والثأر وحرب الاستقلال ومحيطه الاجتماعي إذ يسعى للتخلص منها حتى يثبت هويته دون قيود تفرض عليه.هذا الإضراب كان بسبب" **ما فعل من أجل تحويل فهم الذات إلى هوية قاتلة فهو تجاهل أهمية الانتماءات و الارتباطات الأخرى،وإعادة تعريف شروط الهوية الوحيد بشكل عدائي معين.وهذا هو المكان الذي يقصد به أن تتسرب إليه الفظاظة والاضطراب التصوري الخادع**"[2].

1 – كمال داود ، معارضة الغريب ، ص 21.

2 – أمارتيا سين ، الهوية والعنف،مرجع سابق ،ص 266.

أنه يجب أن تكون هوية الشخص مع جماعته هي هويته الرئيسية أو المهيمنة بل ربما تكون الأكثر أهمية.

إن الاستعمار لا يحتاج إلا إدانة أدبية من طرف كمال داود، فالاستعمار أدين من كتاب جزائريين في الفترات السابقة، وأدين حتى من طرف المفكرين والنخب العالمية وحتى الفرنسية، ما أراده كمال طرحه من خلال الحديث عن الاستعمار كان الهدف منه الخروج من فكرة الاستعمار وما بعد الاستعمار، فالاستعمار ما يزال قائما في الجزائر بطرق مختلفة في اللغة والمؤسسات والتعاملات الإجتماعية وفي المحيط الثقافي ، وفي المواضيع السردية، وقائما حتى في التخيلات والأذهان لدى غالبية الشعب الجزائري .

نخرج من تيمات الإستعمار بتحمل مسؤولية النظر لهذا التاريخ، لكن ليس بالانغلاق داخل هذا التاريخ، فنخرج من ذاكرة الحرب، من سلطة الهيمنة ، بصنع شخصية ذات إستقلالية تامة ترفض الخضوع لأي قوة تأثيرية كانت، بالمقاومة الفكرية، بالسجال المعرفي، فالقوة ليست في السلاح فقط ، فالقوة الحقيقة في القدرة على التعامل مع مثل هذه القضايا بذكاء ، بوعي أكبر، بفرض حلول بديلة فعالة،فمعارضة الغريب هي رواية عن الواقع الإنساني الجزائري، تاريخ الاستعمار لا يزال محفورا في الذاكرة الجزائرية بكل تفاصيله،ولا يزال قائما بشكل أو بآخر وما تجسده هذه الرواية. ضد نزعة سيطرة ثقافة معينة على ثقافة أخرى، أنها أعادت إحياء الذاكرة المطمورة بالمغالطات حول الإنسان العربي بشكل عام، أو المستعمَر في نظر الاستعمار، إذ يخرج كامل داوود الجثة الرمزية من قبو الأدب العالمي ليستعيد صوتها المهمش، ويجعل منها رمزا للمقاومة ومواجهة الواقع الكولونيالي ومحاولة الإنتصار عليه عن طريق الكتابة، فالرواية ما بعد الكولونيالية هي الرواية دعوة للتعامل بطريقة جديدة مع التاريخ، ومع الذاكرة ومع الواقع ومع المستقبل، لنخرج من بقعة التاريخ إلى مستقبل أكثر وعيا بالواقع الإنساني.

الخاتمة

تهدف هذه الدراسة إلى إعادة النظر في الإرث الأدبي الغربي للرواية الكولونيالية، والكشف عن أنساقها الفكرية المترسبة في طياتها ،وإحياء ما همش لفترات طويلة من الزمن، وما دفن في ذاكرة النسيان، وتحريره من شرك الفرضيات التي يستحكم بها هاجس توكيد التفوق الغربي.من خلال التركيز على أسئلة كانت مغيبة قبل هذه الفترة،والتفكير في السرد بشكل مختلف من خلال إعادة النظر في المفاهيم السابقة .

لقد إرتكزت هذه الدراسة على عدة عناصر نظرية في مجال الدراسات ما بعد الكولونيالية تم التطرق أولا إلى إلى مفاهيم تنتمي إلى حقل الدراسات الثقافية. بدءا بضبط مفهوم الثقافة نظرا لدخولها في عدة مجالات معرفية ،وكل مجال تخصصي يعرفها بحسب منظوره،فنجد أن الثقافة هي كل مركب يشمل كل الجوانب الحيطة بالإنسان من معرفة نظرية ، وخبرة عملية، وممارسة إجتماعية والتي تسهم في تحديد طريقة تفكيره ، بما في ذلك الأدب وبما أن هذا الأخير تنتجه الثقافة ،فقد ظهرت دراسات نقدية معاصرة تتجاوز الشعري الجمالي في النص الأدبي ،وينظر إليه في ضوء الثقافة التي أنتجته ، وظهور النقد الثقافي الذي يربط النص بسياقه الخارجي ومحيطه الثقافي ،فينظر إلى النص على أنه حدث ثقافي بالدرجة الأولي بصرف النظر عن مستواه اللغوي والبلاغي،فيرتبط بالعمل السياسي، ويربط بين المثقف والسلطة ،إلقاء الضوء النصوص المهمشة ،علاوة على ذلك يهتم بالنسق المضمر للثقافة ،

واللامرئي في الخطاب،أما الدراسات الثقافية فتأخذ النص من حيث ما ينكشف من خلالها من أنظمة ثقافية تتشكل داخل منظومة مؤسساتية دون التركيز على البنية اللغوية والأسلوبية للنص.

وتنتقل منهاج دراسة الأدب من النقد الثقافي إلى الدراسات ما بعد الكولونيالية حيث يشير مصطلح الكولونيالية إلى فترة الحكم الإستعماري داخل المستعمرات والحديث عن فترة الكولونيالية افرز نتائج لم تقتصر على الجانب السياسي فقط بل إنتقلت إلى الأدب فكان الخطاب من أهم الوسائل التي عبرت عن التجربة الإستعمارية ، فالإستعمار وخطابه متلازمان في فرض السلطة ، فالنص الأدبي ليس بريئا بل يخفي اديولجيات وامكانيات تحملها اللغة في طياته كالمغالطة والتمويه ، فالخطاب سلطة ذاتية .

وبزوال الإستعمار التقليدي ظهرت هذه الدراسات لتعيد النظر في طرق التحليل الثقافي لآثار الإستعمار على الثقافات والمجتمعات ،ويشير بعد مصطلح ما الكولونيالية إلى الفترة التي

أعقبت فترة الإحتلال ويتسع ليستوعب كل ما يترتب عن الفعل الإستعماري . سعت إلى فضح الخطاب الإستعماري وتفكيك مقولاته المركزية التى تعبر عن الهيمنة و التمييز العرقي و الطبقي . و التى ارتكزت عليها الصياغة الإستعمارية إضافة إلى التهجين و النوع و الجنوسة و التي لعبت دورها في الخطاب الإستعماري وكمبررات قوية يختفي ورائها الإستعمار ، فقد أرتبط العرق بصعود الكولونيالية فتقسيم المجتمع البشري إلى أعراق والإعلاء من شأن الجنس الأبيض على الأعراق الأخرى لا ينفصم عن حاجة القوى الكولونيالية لفرض هيمنتها على المستعمرين أما الهجنة فقد فتهدف إلى خلق أشكال متعددة داخل منطقة تماس تتخذ أشكالا عديدة ، والطبقة انتجتها أديولوجيا التفوق العرقي والتي خلقت هرمية في المجتمع وكلما ما سبق احتوته أداب ما بعد الكولونيالية بشكل أو بآخر الذي إعادة قراءة النصوص الكولونيالية لكشف الإديولوجيا الإستعمارية المقصودة والغير مقصودة وفضح التعارض بين الدعاوى الحضارية ومبطناته الإستيطانية وكما ركز على على النضال من أجل السلطة.

أما الفصل الثاني فقد حمل عنوان ما بعد الكولونيالية بوصفها استراتيجية قراءة وتمت دراستها من خلال ثلاث عناصر وهي الهوية ، الهيمنة ، جدلية العلاقة بين الآخر . إذ تمثل الهوية مجموعة المميزات الجسدية و النفسية التى تجعل الفرد قادر على تقديم نفسه ، وبما أن الإنسان متجدر داخل كيان إجتماعي وبفعل الإحتكاكات بين بين الثقافات والشعوب يخلق هوية إجتماعية والتي هي هوية مشتركة . ونظرا للعلاقة القوية بين الهوية و الثقافة . فما من هوية إلا وتختزل ثقافة ، فالثقافة القومية تسعى إلى توحيد الأفراد في هوية ثقافية وتجعلهم متميزين عن غيرهم من الجماعات ،وبهذا فالهوية الثقافية هي التفرد الثقافي . دون إغفال المكونات الثلاث الأهم في تكوين هذه الهوية الدين بإعتباره أساس حياة الأفراد والجماعات ، اللغة بما أنها اللسان الناطق للثقافة . أما التاريخ فتعطي له الأولوية في تشكيل هوية أي امة إذ لا يمكن لهذه الأخير أن تشعر بوجودها إلا من خلاله. أما الهيمنة فقد تم التطرق علي كيفية تطور الإستعمار التقليدي ليصبح غيرا مباشرا يجسد من خلال سيطرته على عنصرين مهمين في المجتمع هما الثقافة واللغة.فالهيمنة الثقافية نظرا لتملكها قوة الإمتلاك بفضل موقعها داخل المجتمع وكيفية الصراع بين ثقافتين تحاول إحداهما فرض نفسها على الأخرى .أما الهيمنة اللغوية باعتبارها الحاملة للثقافة فالثقافة المهيمنة تنتقل عبر اللغة و قد تم الإعتماد في دراسة هذا العنصر على الواقع اللغوي في الجزائر وكيف سعى الإستعمار الفرنسي في فترة الإحتلال علي السيطرة على المجتمع الجزائري لغويا .

و العنصر الثالث تم ظبط مفهومي الأنا والآخر وطبيعة العلاقة الجدلية بينهما وابرز ما يمثل هذه الجدلية هي العلاقة بين الشرق والغرب وكيف ينظر كل منهما إلى الآخر لنخلص في النهاية إلى انها علاقة صراع أبدية .

أما الفصل التطبيقي فخلصنا إلى النتائج التالية:

1- الدراسات مابعد الكولونيالية خلقت نوعا من ألية قرءاة الأدب ما بعد الكولونيالي يخترق نظام القراءة التقليدي الذي فرضه التراث الغربي إلى القراءة الطباقية هي ضرورة أدبية أوجدتها الكتابة المضادة ،إذ لا يمكن قراءة أي عمل أدبي قام على بنية تراثية ،أو نص متصدع من نص آخر أثبت حضوره إلا بهذه القراءة.

2- تتحول اللغة من إستراتيجية للهيمنة على الشعوب الضعيفة إلى وسيلة مقاومة أدبية وإيصال صوت مهمش،وكيف أن للكتابة فعلها الطاغي والمؤثر في نبش قبور الماضي، وتصحيح المغالطات الروائية التي طغت على الأدب الكولونيالي .

3- حضور الهوية في النصوص الروائية في ظل تفاعلاتها ،وتشابكاتها مع الآخر.فتعمل جماليات النص على الكشف عن واقع هذا التفاعل ،ومن هنا تنشأ جدلية الإبداع والهوية حين يكون الصراع مع الأخر الغريب،ومهما كانت قوة هذا الغريب وفعله في قتل الهوية، إلا أنه من الصعب جدا قتل الهوية، فهي حصيلة مشتركة لتفاعل العقيدة والدين واللغة والتراكم المعرفي والأدبي،وإذا كانت الهوية الشخصية قابلة للتغير فإن الهوية الإجتماعية تصونها من الضياع والإضمحلال في ظل تيارات هويات أخرى تسعى إلى نسفها، فالهوية لا تقتل لا أدبيا ولا إجتماعيا ، ولا حتى فنيا.

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

❖قائمة المصادر:

1 – ألبير كامو،الغريب،تر: عايدة مطرجي إدريس،دار الآداب، بيروت، لبنان، .2013

2 – كمال داود، معارضة الغريب،تر: ماري دويهي وجان هاشم ، دار البرزخ ، ط1 ، 2015.

❖ قائمة المراجع :

1– إدريس جنداري، الفرانكوفونية اديولوجية استعمارية بغطاء ثقافي ولغوي،التجديد العربي،11 جويلية 2011.

2– إدريس خضراوي، السرد موضوعا الدراسات الثقافية، تنبين للدراسات الفكرية والثقافية، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، العدد 7، م 2، 2014.

3– إلياس بلكاوي ومحمد محرز، إشكالية الهوية والتعدد اللغوي في المغرب العربي ،مركز الإمارات لدراسات والبحوث الإسترتيجية ، أبو ظبي ، ط1، 2014.

4– آمال علاوشيش، مابعد الكولونيالية، ضمن خطابات الـ"ما بعد ، مجموعة مؤلفين،ط1، 2013.

5– جلال أمين ، العولمة ، دار الشروق ، القاهرة ، مصر ، ط1، 2009.

6 – زاهر رياض ،استعمار إفريقيا، الدار القومية لطباعة والنشر، القاهرة ،1965

7– حسن شحاتة ، الذات والأخر في الشرق والغرب ،دار العالم العربي ،القاهرة ، ط1،2008.

8– حسين حنفي ، الهوية ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، 2012.

9– محمد عابد الجابري،مسألة الهوية والعروبة والإسلام والغرب ، مركز دراسات الوحدة العربية، سلسلة الثقافة القومية27،قضايا العربي 3، بيروت، لبنان ، .2012

10– محمد عمارة ،مخاطر العولمة علي الهوية الثقافية ،نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، ط 1، فيفري .1999

11– ميجان الرويلي وسعد البازغي، دليل الناقد الأدبي،المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب ،ط2002،3.

12– نادر كاظم ، تمثيلات الأخر،المؤسسة العربية للدراسات والنشر،بيروت، ط2004،1.

13- صلاح قنصوة ، تمارين في النقد الثقافي ، درا ميريت القاهرة ، ط 1، .2007

14- عبد الإله بلقزيز، الفرانكفونية اديولوجيا سياسات تحد ثقافي- لغوي ،مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ، لبنان، ط1، ماي 2011.

15- عبد العزيز التويجري ، الثقافة العربية والثقافات الأخرى ، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة ، إسيسكو، ط2، 2015.

16- عبد العزيز عثمان التويجري، العالم الإسلامي في عصر العولمة، دار الشروق ، القاهرة ، 2004.

17- عبد الغني عماد، سيسيولوجيا الثقافة المفاهيم و الإشكالات من الحداثة إلى العولمة مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت لبنان ط1، فيفري 2006.

18 - عبد الله إبراهيم ، السردية العربية الحديثة المركز الثقافي العربي، الدارالبيضاء ، المغرب، ط1، 2003 .

19- عبد الله البريدي، اللغة هوية ناطقة ، المجلة العربية ، الرياض ، السعودية ،ع 197، 1434هـ.

20- عبد الله الركيبي ، الفرانكوفونية مشرقا ومغربا ، دار الكتاب العربي لتوزيع والطباعة والنشر، القبة ، الجزائر، .153

21- عبد الله محمد الغدامي ، الكتابة ضد الكتابة ، دار الأداب ،بيروت ، ط 1 ، 1991.

22- عبد الله محمد الغدامي،النقد الثقافي قراءة في الأنساق العربية،المركز الثقافي العربي، ط3، 2005.

23- عبد الله الغدامي،النقد الثقافي قراءة في الأنساق العربية،الهيئة العامة لقصر الثقافة،القاهرة، ط1، 2010.

24- عثمان سعدي ، التعريب في الجزائر كفاح شعب ضد الهيمنة الفرانكفونية، دار الأمة للطباعة والترجمة والنشر والتوزيع.

25- عفيف البويني ، في الهوية القومية العربية ، ضمن سسلسلة كتب المستقبل العربي،الهوية وقضاياها في الوعي العربي المعاصر،مركز دراسات الوحدة العربية،بيروت ، لبنان، ع68 ، ط1، 2013.

26- على إبراهيم حمد النملة،الشرق والغرب منطلقات العلاقة ومحدداتها،بيهان،الرياض،ط3، 2010.

27- رامي أبو شهاب،الرسيس والمخاتلة، خطاب ما بعد الكولونيالية في النقد العربي المعاصر المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، .2013

28- رشيد الحاج صالح ،الوجه السياسي للثقافة العربية المعاصرة ،الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان ،ط 1، 2012 .

المراجع المترجمة :

1- إدوارد سعيد ، الثقافة والإمبريالية ، تر:كمال أبو ديب ،دار الأداب ، ط4، 2014،.

2- إدوارد سعيد ، العالم والنص والناقد ، تر:عبد الكريم محفوظ ، إتحاد الكتاب العرب،دمشق، سوريا،2000.

3- إدوارد سعيد ،الإستشراق، محمد عناني،رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة ، ط1، 1996.

4- أليكس ميشكللي، الهوية . تر: علي وطفة، دار الوسيم للخدمات الطباعية،دمشق، ط1، 1993.

5- أمارتيا سين ، الهوية والعنف، تر:حمزة بن قبلان المزيني، جداول للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، فيفري 2012.

6- ارثر إيزابرجر، النقد الثقافي تمهيد مبدئي للمفاهيم الرئيسة، تر وفاء إبراهيم و رمضان بسطاوسي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، مصر، ط1، 2003

7 – أنيا لومبا، في نظرية الاستعمار و ما بعد الاستعمار الأدبية تر: محمد عبد الغني غنوم دار الجوار للطباعة و النشر و التوزيع اللاذقية، سوريا، ط1، .2007

8- بيل إشكروفت وآخرون،الإمبراطورية ترد بالكتابة ،تر:خيري دومة ،أزمنة لنشر والتوزيع ،عمان ، الأردن، ط1، 2005.

9- بيل اشكروفت وآخرون ، الرد بالكتابة،المنظمة العربية لترجمة ، بيروت ، لبنان، ط1، 2010،

10- بيل إشكروفت وآخرون ، دراسات ما بعد الكولونيالية المفاهيم الرئيسة ،تر:أحمد الروبي وآخرون ،المركز القومي للترجمة ، القاهرة ، ط 1، .2010

11– جاك ديريدا ، أحادية الأخر اللغوية ، تر: عمر مهيبل، منشورات الإختلاف ، الجزائر،ط1، 2008 .

12– جان فرانسوا ماركيه، مرايا الهوية الأدب المسكون بالفلسفة، تر:كميل داغر، مؤسسة الفكر العربي، بيروت، ط1، سبتمبر، 2005

13– جون جوزيف ، اللغة والهوية ، تر: عبد النور خرافي،عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت،ع 342 ، فيفري، 1978.

14–جون بول سارتر، الوجود والعدم ، تر: عبد الرحمان بدوي ، منشورات دار الآداب، بيروت، ط1، أغسطس1966.

15–هرلمبس وهولبورن ،سوسيولوجيا الثقافة والهوية،تر:حاتم حميد محسن ،دار كيوان لطباعة والنشر،دمشق ،سوريا، ط1، 2010.

16– وليام هارت، إدوارد سعيد والمؤثرات الدينية للثقافة،تر:قصي أبو الذبيان،هيئة أبوظبي للثقافة والثراث (كلمة)،ط 1،2011.

17 – يانيك هوميل،الطبقات الاجتماعية،تر:جورجيت الحداد،دار الكتاب الجديدة المتحدة،بيروت، لبنان، فيفري 2008.

18. – كيلفورد غيرتر، تأويل الثقافات، تر: محمد بدوي، المنظمة العربية للترجمة بيروت لبنان ط1، 2009.

19– كيلي م هانوم، الهوية الاجتماعية ،تر: خالد بن عبد العوض، العالبيكان للنشر،السعودية ، ط 1.

20– مالك بن نبي، مشكلة الحضارة، مشكلة الثقافة، تر : عبد الصابور شاهين ، دار الفكر ط4، 2000.

21– مجموعة من المؤلفين، نظرية الثقافة، تر: سيد علي الصاوي، دار المعرفة، العدد 233، 1978.

22– سايمون ديورنغ ، الدراسات الثقافية، مقدمة نقدية، تر: ممدوح يوسف عمران، عالم المعرفة، الكويت،.2015

23 – ستيوارت هول ،حول الهوية الثقافية، تر: بول طبر،مجلة إضافات،ع 2،2008.

24– فرانز فانون، من أجل إفريقيا تر، مجيد الميلي، دار الطليعة للطباعة و النشر ،لبنان، ط 1، سنة 1966.

25– ضيف حسن ،صراع الغرب مع الإسلام ،تر:عادل العوا ،عويدات للنشر والتوزيع ،الرياض، ط1، 2013،ص .66

26– رالف لينتون،الانتروبولوجيا وأزمة العالم الحديث،تر،عبد المالك الناشف المكتبة العصرية ، بيروت، لبنان،.1967

27– روجيه غارودي ، في سبيل حوار الحضارات، تر: مازن مطبقاني، دار الوعي للنشر والتوزيع ، الرياض، ط2013،1.

❖قائمة المعاجم :

1–ابن منظور جمال الدين بن مكرم ، لسان العرب، دار صادر، بيروت، م10، ط1،دت.

2–أحمد مختار عبد الحميد عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة ،عالم الكتب، القاهرة، ج1، ط2008،1.

3–الشريف علي الجرجاني،في التعريفات، تر:محمد صديق منشاوي،دارالفضيلة،القاهرة،مصر ،دط، دت .

4– مجمع اللغة العربية المعاصرة ، المعجم الوسيط ، مكتبة الشروق الدولية، م1 ،ط4، 2004.

❖المجلات

1– أحمد محمد معتوق ، الحصيلة اللغوية، المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب، الكويت، العدد212، فيفري 1978.

2– إسماعيل خلباص حمادي ، النقد الثقافي مفهومه، منهجه و إجراءاته ، مجلة كلية التربية، العدد 13، 2013.

4–العيد جلولي ، الأبعاد المفاهيمية لنظرية ما بعد الكولونيالية مجلة الجمعية الثقافية العراقية في مالوا، ع 51، 2012،

5–أزراج عمر، الأدب المكتوب بالفرنسية أهو منفى الجزائري أم غنيمة حرب ، العرب، 9302 ،2013/08/27.،ص 14.

6- وليد خالد أحمد،الأخر في الثقافة العربية من القرن السادس عشر حتى القرن العشرين، كتابات، الخميس 4 آذار 2013

7- حمدي حسن عبد الحميد المحروقي ، دور التربية في مواجهة تداعيات العولمة على الهوية الثقافية ، مجلة دراسات في التعليم الجامعي ،ع7، أكتوبر .2004

8- طارق ثابت، هوية الأدب بين الحضور والغياب في الخطاب النقدي العربي ما بعد الكولونيالي، مجلة الأثير،ع 12، ديسمبر 2014.7

9- ماجد حمود ، إشكالية الأنا والأخر، عالم المعرفة، الكويت ، ع 398، .1987

10- محمد زغو، أثر العولمة على الهوية الثقافية للأفراد والشعوب، الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية ،ع4، 2010.

11- محمد سعدي، الهوية من الوحدة إلى التعدد،آفاق المستقبل ،ع 7، سبتمبر/ أكتوبر .2010

12- سامح محمد إسماعيل ،الجماعات الهامشية بين المركز والأطراف ، منتدى العلاقات العربية والدولية ،2015./05/27

13- عبد الرحمان الثليلي ، فوكو الحفريات منهج أم فتح في الفلسفة ، مجلة عالم الفكر،الكويت، العدد 4، 30 أفريل 2002، ص 40 .

14- عبد الله البريدي، اللغة هوية ناطقة، المجلة العربية ، الرياض ، السعودية، ع 197

15- شرقي رحيمة ، الهوية الثقافية الجزائرية وتحديات العولمة ،مجلة العلوم الإنسانية ،ع 11، جوان 2013.

❖الموسوعات

1- إسماعيل عبد الفتاح عبد الكافي ،الموسوعة الميسرة للمصطلحات السياسي،دط، دت.

2- أندريه لالاند ، موسوعة لالاند الفلسفية، تر: خليل أحمد خليل ،منشورات عويدات، بيروت، لبنان، م(A-G)، ط2، 2010.

3- اندرو اديجار وبيتر سبيد جوك، موسوعة النظرية الثقافية،المفاهيم المصطلحات الأساسية، تر:هناء جوهري، المركز القومي للترجمة، ط2009،1.

4-جوردنماريشان، موسوعة علم الإجتماع،تر محمد الجوهري وآخرون،المجلس الأعلى للثقافة، م1، ط2 ،2007،ص718.

5-نبيل راغب،موسوعة النظريات الأدبية،الشركة المصرية العالمية لنشر لونجمان،ط1 ،2003.

❖المواقع الإلكترونية :

1- أحمد أبو حسن الدراسات الثقافية و النقد المغربي المعاصر، مجلة رباط الكتب،23 مارس 2013. http://ribatalkoutoub.com

2- كوسترو ماسورا ، رسالة المدير العام لليونسكو بمناسبة الإحتفال بالسنة الدولية للغات ،2008. www.un.org/arabic/events/iyl/unesco

3- لونيس بن علي،رواية البحث عن عدالة التوازنات،مجلة نفحة،22جانفي 2015، www.nafhanay.com

4- محمد علي المحمود، الثقافة وإشكالية الهيمنة،مجلة الرياض،العدد 15736. http://www.alriyadh.com/15736

5- مختار العربي، مفهوم الهيمنة الثقافية، الحوار المتمدن، ع1167، 2005/04/14. http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=35445

6 – موسوعة ويكبيديا الحرة ،www.wikipedia.com/ postcolonialism

7- سوسن الأبطح ، كمال داود:اكتب بالفرنسية لأن اللغة العربية مكبلة ولا تسمح لي بالحلم ، جريدة الشرق الأوسط .ع 13496، 10نوفمبر 2015، aawsat.com/home/article/493316

8- سعد محمد رحيم،أدب ما بعد الكولونيالية ،الرؤية المختلفة والسرد المضاد، الحوار المتمدن،ع 1303، 2005/08/3 http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=44341

9- شهيب عادل، الثقافة والهوية،إشكالية المفاهيم والعلاقة،موقع انتربيوس،18 أفريل2016. http://www.aranthropos.com.

فهرس المحتويات

فـهـرس الـمـحـتـويـات

مقدمة: ..... أ

مدخل :الدراسات الثقافية

1- مفهوم الثقافة :..... 03

2- الدراسات الثقافية: 05

3-النقد الثقافي:..... 08

الفصل الأول : من النقد الثقافي إلى الدراسات ما بعد الكولونيالية

1- مفهوم الكولونيالية والامبريالية

1-1- مفهوم الكولونيالية 11

1-2- مفهوم الامبريالية 13

2- الخطاب الكولونيالي

2-1-مفهوم الخطاب 16

3-2- مفهوم الخطاب الكولونيالي 20

3- الدراسات ما بعد الكولونيالية

3 -1- مفهوم ما بعد الكولونيالية..... 23

3- 2- مرتكزات ما بعد الكولونيالية

- العرق..... 28
- الهجنة..... 31
- الطبقة..... 32

3-3-آداب ما بعد الكولونيالية 34

الفصل الثاني : ما بعد الكولونيالية بوصفها استراتيجية قراءة .

1 –الهوية

1-1 **مفهوم الهوية** **38**

2-1 **الهوية الإجتماعية** **41**

3-1 **الهوية الثقافية** **42**

4-1 **عناصر تشكيل الهوية الثقافية** **43**

2– الهيمنة :

2 -1 مفهوم الهيمنة..... **46**

2 – 2 الهيمنة الثقافية **48**

2 – 3 الهيمنة اللغوية **50**

3 – جدلية الأنا والآخر

3-1 مفهوم الأنا والذات **54**

3-2 مفهوم الآخر **55**

3-3 طبيعة العلاقة بين الشرق والغرب **56**

الفصل الثالث : (تطبيقي) –تجليات الرؤية ما بعد الكولونيالية في رواية معارضة الغريب لكمال داود

1-بين روايتي " ميرسو تحقيق مضاد " و " الغريب".

1-1 **ملخص رواية الغريب لأمبير كامو**..... **59**

2-1 **ملخص الرواية (معارضة الغريب)**..... **60**

1-3 **رمزية العنوان " ميرسو، تحقيق مضاد"** **62**

1-4 رؤية العربي في رواية الغريب لألبير كامو..... **63**

2-استراتجية القراءة في رواية معارضة الغريب

2-1 القراءة الطباقية..... 65

2-2 الكتابة المضادة..... 68

3-1 الكتابة بلغة الأخر..... 74

2-4 البحث عن الهوية والذات 80

الخاتمة 85

قائمة المصادر والمراجع 88

فهرس المحتويات 95